

الفصل الثامن
الحياة الرهبانية اليومية
داخل أديرة واديالنطرون
كما صورها الرحالة

الفصل الثامن

الحياة الرهبانية اليومية داخل أديرة

وادي النطرون كما صورها الرحالة

لقد كانت الرهبنة تحتم علي الراهب أن يمضي حياته داخل الدير، ومن أقوال القديس أنطونيوس الكبير في هذا الشأن أنه قال: «كما يموت السمك إذا خرج من الماء، كذلك يموت الراهب إذا أبطأ خارج قلايته»، هكذا سارت الحياة الرهبانية اليومية على مستويات عديدة منها رهبان كل دير الذين يعيشون في مجمع الرهبان ويلتزمون بالاجتماع في جرس نصف الليل، وجرس باكر للتسبحة والقداس، وجرس الغروب ويشتركون في أعمال الدير ومسئوليته. وهناك مجموعة من الرهبان المبتدئين في الوحدة الذين لهم قلال خاصة، خارج المبني الأثري للدير، في حديقة الدير، او في امتداده. ثم طائفة أخرى من الآباء الرهبان يعيشون حياة الوحدة التامة، اما في القلاي المبنية علي التلال أو المرتفعات المحيطة بالدير، أو في بعض المغارات، والراهب بعد أن يقضي فترة إختبار تصل أحياناً إلى ثلاث سنوات، يتلو - قبل سيامته راهباً- تعهداً أمام مجمع الرهبان بالتزامه بالحياة الرهبانية الديرية السلمية حسب قوانين وطقس الرهبنة والالتزام بالقوانين التي سنها المجمع الخاصة بالرهبنة، وقد تعددت مسؤوليات الرهبان الخدمية منها الخدمة في كنائس الإيبارشيات، وبلاد المهجر، في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، وأفريقيا.

وكانت الحياة اليومية الرهبانية الديرية داخل أديرة وادي النطرون كما يصفها الرحالة حياة اجتماعية استقلالية، تحكمها القوانين الرهبانية، التي تقوم على تنفيذها إدارة الدير، التي كانت تعمل جاهدة على توفير حياة الهدوء والسكينة والحياة الروحانية للرهبان، من خلال تنظيم مواعيد الصلاة الجماعية وحضور القداس الإلهي، والنوم والعمل والمأكل والملبس

من خلال تحديد الزي الموحد للرهبان وطالبي الرهبان، وأيضًا القراءة والاطلاع ونسخ المخطوطات والكتب المقدسة، وكذلك توفير مصادر تمويله للإنفاق على الرهبان والمؤسسات الديرية، والتواصل مع جهاز الدولة الإداري للمساهمة في حل بعض المشكلات التي تعجز عن حلها، من أجل الحفاظ على الحياة الرهبانية اليومية داخل أسوار الأديرة، وهذا ما سوف نتعرض له في هذا الفصل.

الحياة الرهبانية اليومية داخل أديرة وادي النطرون:

كان من شروط قبول الشخص الذي يريد أن ينضم إلى الدير أن يقضي ثلاث سنوات تحت الاختبار^(١)، لكي يثبت في أثنائها قدرته علي ممارسة حياة البتولية والطهارة والخضوع لأحكام القانون. وفي هذه الفترة أيضًا كان لزاما علي المبتدئ أن يتعلم القراءة والكتابة، وأن يحفظ المزامير، ورسالتين من العهد الجديد طبقا لتعاليم الأنبا باخوميوس، فمتي تم له ذلك وزعت ملابسه علي الفقراء، واستعيض عنها بالملابس الجديدة من الدير، وسمح له بالانتقال من دار الضيافة الواقعة عند المدخل إلى قلالي الرهبان داخل الدير، وكانت ملابس الراهب تمتاز بالبساطة التامة، حيث جاء في رسالة أفسس الأصحاح السادس يقول معلنا بولس الرسول «البسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تثبتوا ضد مكاييد إبليس ... من أجل ذلك احمّلوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تقاوموا في اليوم الشرير، وبعد أن تتمموا كل شيء أن تثبتوا ... فاثبتوا منطقتين أحقاءكم بالحق، ولا بسين درع البر، وحاذين أرجلكم باستعداد إنجيل السلام. حاملين فوق الكل ترس الإيمان ... وخذوا خوذة الخلاص، وسيف الروح الذي هو كلمة الله.»^(٢) فالراهب يرتدي قميصًا قصير من غير أكمام يصل إلى الركب، وله حزام يشد به وسطه، وعلي كتفيه وظهره علق فروة من فراء الماعز أو الخراف، وفوقها عباءة خيطة

(١) رسالة مارمينا: المرجع السابق، ص ١٩.

(٢) الكتاب المقدس: رسالة بولس الرسول إلي أهل أفسس: (٦: ١٠ - ١٧).

بأعلاها قلنسوة^(١) الرأس التي كانوا يرسمون علي جبهتها علامة الدير، وهي عبارة عن صليب من مختلف الألوان للدلالة علي المؤسسة التي ينتمي إليها الراهب، وفي قدميه حذاء (صندل) مفتوح. هذه الملابس بكاملها إنما يرتديها الراهب عند سفره خارج الدير فقط، بينما وهو في الدير يكتفي بارتداء القميص القصير والحزام والطاقيّة، وكان القميص مصنوع من التيل الخشن، وكان يسير عاري القدمين^(٢). ويبدو أن ملابس رهبان دير البرامواس لم تنل أعجاب

(١) قلنسوة: هي كلمة يونانية (κουκούλα) تسمى كولوليون أو كوكلس وهي عبارة عن غطاء للرأس وهي تشبه غطاء رأس الأطفال والجمع منها: قلانس، وقلانس، وقلانس، وقلانس، وتعرف أيضًا «القلنسوة» أو القلسوة تسمى في اليونانية كوكوليون أو كوكول وتسمى في اللغة القبطية «كلافت»، أما أصلها فقد ورد في كتاب بستان الرهبان بخصوص القلنسوة التي سلمها الملاك للقديس العظيم الأنبا أنطونيوس المنظم الحقيقي للحياة الرهبانية، وهو يرتدي القلنسوة «حيث قام من موضعه وانتقل إلى مكان آخر وجلس، وإذا برجل جالس أمامه وعليه إسطوانة ومتوشح بزنا صلب مثال الإسكيم، وعلى رأسه كوكلس، شبه الخوذة، وكان جالسًا يضر الخوص، وإذا بذلك الرجل يتوقف عن عمله ويقف ليصلي. وبعد ذلك جلس يضر الخوص ثم قام مرة ثانية ليصلي، ثم جلس ليشغل في ضر الخوص، وهكذا، أما ذلك الرجل فقد كان ملاك الله أرسل لعزاء القديس وتقويته إذ قال لأنطونيوس: «إعمل هكذا وأنت تستريح» ومن ذلك الوقت إتخذ أنطونيوس لنفسه ذلك الزي هو شكل الرهبنة، وصار يصلي ثم يشغل في ضر الخوص، وبذلك لم يعد الملل يضايقه بشدة. فإستراح بقوة الرب يسوع له المجد» لذلك يقول القديس أنثاسيوس الرسول تلميذ الأنبا أنطونيوس وكاتب سيرته بخصوص ملابس الراهب «... وثيابك الأساسية لا تكن ثمينة للغاية، ورداؤك الخارجي ليكن أسود اللون، ولا تضيف له صبغة الألوان، واجعله يغطي الجسم والأظفار، والأكمام تغطي الأذرع إلى أصابع اليدين، وتغطي شعر الرأس المنسدل بغطاء من وبر، وتربط الشعر المنسدل برباط يغطيك إلى الأكتاف، حتى إذا ما تقابلت مع أي شخص يكون الوجه مغطى، وتشير له من تحت البرقع، ولا ترفعه من على وجهك لأي إنسان، إذا لم تكن منفردًا مع إلهك»، كما توجد صلاة خاصة بلبس القلنسوة فعندما يلبسه القلنسوة يهتف أيضا، «البس قلنسوة التواضع وخوذة الخلاص وأعمل ثمرة صالحة بالمسيح يسوع ربنا، هذا الذي ينبغي له المجد إلى الأبد آمين، ثم يمنطق بالمنطقة وهو يقول شد على حقويك بجميع رباط الله وقوة التوبة بالمسيح يسوع ربنا هذا الذي ينبغي له المجد إلى الأبد آمين» انظر: مارتيروس، الأنبا، تاريخ القلنسوة الرهبانية، موقع الكنوز القبطية، مارس ٢٠١٨م؛ ابن كبر (شمس الرئاسة بن الشيخ الأكمل الأسعد أبي البركات): مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة، ج ٢م، ط ١، الناشر مؤسسة مينا للطباعة، ١٩٩٨م، ص ٥٦.

(٢) رسالة مارمينا: المرجع السابق، ص ٢٠٣-٢٠٤.

سيكار حيث وصفها قائلاً: «وملابس رهبان دير البراموس بسيطة، ويفضلون الملابس السوداء الألوان القاتمة»، أما سونيني فوصف رهبان ذات الدير قائلاً: «لم أرَ أفدر ولا أجهل منهم»، ولكن ربما وصفهم بذلك لمنع الرهبان من اطلاعه علي المخطوطات^(١).

كما كان هناك مواعيد للطعام في الظهر والمساء، وبعض الرهبان المتقشفين كانوا يفضلون تناول وجبة واحدة من الخبز والملح والماء، وكان الطعام يتكون من الخبز والخضر والحساء والجبن والفاكهة، وكان يتم تناول الطعام مرتين على المائدة، وكان الرهبان يدخلون قاعة الطعام حفاة الأقدام وهم لا بسون القميص والفرو والعباءة والطاقيّة والقلنسوة ويأكلون ما يقدم لهم في سكون دون أن ينظر الواحد منهم ذات اليمين وذات اليسار، وفي أعلى القاعة واحد من الإخوة يقرأ فصولاً من الكتب المقدسة^(٢). وقد أكد الرحالة سيكار وقسطنطين تشيندورف علي أن غذاء الرهبان الخبز والحس والأرز وأحياناً العسل، بينما ذكر سونيني أن رهبان البراموس قاموا بزراعة النباتات في حديقة الدير، وخاصة الفلفل البلدي ويأكلون جوره مع اللحم في الأيام التي لا يكون فيها صيام، كما لا يوجد لديهم فواكه ولا زهور، ولكن الرهبان تُخصّص لهم جزء من ملح وادي النظرون أطلق عليه «ملح مختوم» أي إنه خاص برهبان الدير.^(٣)

علي أية حال، كان يبدأ الراهب يومه بعد منتصف الليل بخدمة تسبيح صلاة نصف الليل، فإذا انتهت التسبيحة ويتحتم أن تنتهي قبل ظهور ضياء الفجر لا يعود إلى النوم، بل يتبع الصلاة بالهذيد في الكتاب المقدس حتى يبزغ نور الفجر، وذلك ترميماً لوصية الأنبا أنطونويس الأولى والعظمى «أن تصلى دائماً وترنم بالمزامير قبل النوم وبعد اليقظة من النوم وأن تهذب في قلبك مقولات الأسفار المقدسة»، فإذا أشرق نور النهار يهب الراهب نشيطاً^(٤). بعدها يبدأ الراهب عملاً من أعماله اليومية، حسب تخصصه، إما في السلال أو غزل ونسج الكتان لصنع ملابسه، أو في نسخ الكتاب المقدس أو المخطوطات أو سير بعض القديسين، وكان من الجائز للراهب

(١) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين، المرجع السابق، ص ٢٣٨.

(٢) رسالة مارميننا: المرجع السابق، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٣) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين، المرجع السابق، ص ٢٣٨.

(٤) متى المسكين: الرهبنة في عصر القديس الأنبا مقار، المرجع السابق، ص ٦٣٢.

أن يؤدي هذه الأعمال في قلايته ويقوم بها بلا انقطاع (طوال السنة) مع التهذيب بالمزامير وقطع من الكتاب المقدس بصفة مستمرة في أثناء العمل^(١). وهذا ما أكده أندريوسي حيث ذكر قائلاً: «ويقضي رهبان شيهيت اليوم كله في الخلوات والصلاة»^(٢). أما سيكار فقد كتب في هذا الشأن قائلاً: «ويقضي الرهبان ساعات عديدة في الصلاة ليلاً ونهاراً، ويعملون بأيديهم خلال الساعات الباقية. وجميعهم يطيعون رئيساً واحداً والخضوع له قاعدتهم الرئيسة»^(٣).

وكانت هناك مجموعة من الأعمال التي تتم خارج القلاية، كل راهب حسب المناوبة لخدمة الدير ومنها العمل بالمطبخ أو المخبز أو كبواب أو قندلفت (المستول عن سراج القناديل)^(٤)، أو عمل القربان أو دق الجرس أو كطبيب لشيوخ الرهبان أو المرضى أو ري وزراعة وجني ثمار وخضراوات الحديقة أو رعي ما يمتلكه الدير من رؤوس حيوانات^(٥) أو العمل باقتلاع النطرون^(٦).

ومن المعروف عند الآباء الرهبان أن شغل اليديتيهي ظهرأى بحلول الساعة (١٢ ظهرًا) بعدها يترك للراهب أن يأخذ لنفسه راحة تتناسب مع طبيعته، وفي الساعة (٣ بعد الظهر) يتناول وجبة الغذاء الأولى والوحيدة بعد فترة الصوم الانقطاعي اليومي، وغالبًا ما تكون مكونة من الخبز والبقول أو العدس، حيث يأخذ كل راهب كفايته اليومية ويأكل في قلايته^(٧) وبعدها يؤدي صلاة تعرف بصلاة الساعة التاسعة ويعقبها صلاة الغروب بقلايته، بحيث إنه إذا وقف الإنسان في المساء في وسط قلالي الرهبان بالدير يسمع المزامير والتسابيح صاعدة من القلاي حولها فيظن أنه في

(١) متاؤس، الأنبا: المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٢) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين، المرجع السابق، ص ٢٣٩.

(٣) هيو ج. ج. إيفلين هويت: المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٤) مجلة الكرازة: السنة ٢٣، العددان ٤٥، ٤٦، ٢٦ هاتور ١٧١١ش / ٨ ديسمبر ١٩٩٥م، ص ١٤.

(٥) وثائق دير السريان: وثيقة رقم ١٠٥٤، ٢٢ برمودة ١٥٩٨ش / ١٨٨٢م.

(٦) إلياس الأيوبي: المرجع السابق، ج ١، ص ١٣٣.

(٧) عمر طوسون: المرجع السابق، ص ١٧٦.

الفردوس^(١) فليس هناك ما يعطل الراهب عن الصلاة والتساييح، كما ورد في رسالة بولس إلى أهل أفسس قائلاً: « مُصَلِّينَ بِكُلِّ صَلَاةٍ وَطَلْبَةٍ كُلِّ وَقْتٍ فِي الرُّوحِ، وَسَاهِرِينَ لِهَذَا بِعَيْنِهِ بِكُلِّ مُوَاطَبَةٍ وَطَلْبَةٍ، لِأَجْلِ جَمِيعِ الْقَدِيسِينَ »^(٢)، ويصف لنا أحد الشعراء ذلك في الأبيات التالية:

كسبت العمر لا جاء	يشاغلني ولا مال
ولا بيت يعطلني	ولا صحب ولا آل
هنا في الدير آيات	تعزيني وأمثال
هنا الإنجيل مصباح	ولا يخفيه مكيال
هنا لا ترهبُ الرهبا	نَ قَضْبَانٌ وَأَغْلَالُ
ولا تلهو بنا الدنيا	فادبارٌ وإقبالُ.
أقول لكل شيطان يريد الآن	إغرائي
حذارك إنني أحيا غريباً مثل	آبائِي ^(٣)

وبعد صلاة الغروب يخلد الراهب إلى النوم وينام الراهب العادي من الغروب مباشرة حتى ميعاد صلاة نصف الليل^(٤). وكان الراهب ينام على مصطبة مرتفعة مصنوعة من الطين علي شكل وسادة، وفي الوصايا الست الخاصة بالرهبان يرد ذكر المقاعد ذات المساند للرأس في حالة النوم، وكان من المسموح للرهبان أن يناموا علي سقوف القلاي في ليالي القميص الشديد^(٥). وقد وصف الأب كلود سيكار حالة النوم عندهم قائلاً: «وينامون الراهبان بملابسهم كاملة على حصير مبسوط على الأرض، وكان نمط حياتهم بسيط للغاية»^(٦).

(١) مجلة الكرازة: السنة ٢٢، العددان ٣١، ٣٢، ١٣، مسرى ١٧١٠ ش/ ١٩ أغسطس ١٩٩٤، ص ١٥.

(٢) الكتاب المقدس: رسالة بولس الرسول إلي أهل أفسس: (٦: ١٩).

(٣) شنودة، البابا: انطلاق الروح، المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٤) متاؤس الأنبا: المرجع السابق، ص ١١٢.

(٥) رسالة مارمينا: المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(٦) لمزيد من التفصيل عن المائدة انظر: الشكل رقم ١٧، ٢٢.

وكان رهبان وادي النطرون لا يجتمعون إلا في يومي السبت والأحد من كل أسبوع، وذلك لعودة الرهبان المتوحدين طوال الأسبوع من خارج الدير، وفي يوم السبت بالكنيسة تُصلى صلاة رفع بخور عيشة وفي صباح الأحد صلاة القداس؛ للتناول من الأسرار المقدسة^(١) يعقبها وجبة غذائية عامة (أغابي أي محبة) وهي التي يشترك فيها جميع الرهبان بهائدة الدير^(٢)، وفي مقدمتهم رئيس الدير، وفي أثناء جلوسهم لتناولها يقرأ لهم أمين الرهبان جزءاً من بستان الرهبان، ثم يشاركون جميعاً في نظافة ونظام الأواني والمكان، وبعدها ينصرفون إلى العزلة التامة، فلا يزور أحدهم الآخر إلا في حالة المرض أو لبعض النصائح الروحية^(٣).

وقد وصف لنا الأب كلود سيكار ما يحدث داخل قاعة الطعام من حيث نوعية الطعام وطريقة جلوس الرهبان، حيث ذكر أنه دعي بعد صلاة القداس بدير السريان لتناول وجبة العشاء العامة التي كانت تتكون من خبز منقوع في حساء "عدس" وفي أثناء جلوس الرهبان لتناول الطعام كانت تقرأ مجموعة من القواعد الرهبانية التي يعتقد أن السيدة العذراء قد اعطتها للقديس مقاريوس الصغير، وفي النهاية تليت الصلاة الربانية باللغة القبطية، على سبيل الشكر، وفي المطبخ الملحق بالقاعة كانت توجد ثلاث قدور كبيرة للطهي تدعى في الصعيد باسم (برام)، وهي الأدوات الوحيدة المستخدمة لطهي الطعام، ويرجع تاريخها لأكثر من قرن. ولما كان الوقت وقت احتفال فقد كان لدي الرهبان وجبة مسائية أو خفيفة عبارة عن طبق صغير من الشوان، وآخر به سكر قصب (عسل أسود)، وأحياناً كانوا يستعملون بصلاً جافاً في ماء مملح. وهم لا يشربون نبيذاً ويشربون قليلاً من القهوة، وكان نمط حياتهم هزياً للغاية،

(١) الأسرار المقدسة: أحد أسرار الكنيسة السبعة طبقاً لما ورد في قول السيد المسيح: «من يأكل جسدي ويشرب دمي، يثبت في وأنا فيه» انظر الكتاب المقدس: إنجيل يوحنا، الأصاح ٦، آية ٥٦؛ المزيد من التفصيل انظر:

مجلة الكرازة، السنة ٢٢، العددان ٤١، ٤٢، ٢ هاتور ١٧١١ ش/ ١١ نوفمبر ١٩٩٤ م، ص ١٩.

(٢) هيوج. ج. إيفلين هويت: المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٣) عمر طوسون: المرجع السابق، ص ١٧٤.

ومتقشفًا وعلى العكس من تقارير الرحالة المتأخرين، فقد وجدنا رهبانًا أقويا ومملوئين صحة، وحسنى التغذية^(١).

طقس القديس الإلهي في أديرة وادي النطرون:

يرجع تاريخ وضع طقس^(٢) القديس^(٣) الإلهي في الكنيسة المسيحية، إلى الآباء الرسل أنفسهم ومن خلفهم من الآبا الرسولين والقديسين حتي يومنا هذا. ووضع آباء الكنيسة الطقوس، بإرشاد الروح القدس لمنفعة المؤمنين والمصلين، ولذلك نجد أن كل ترتيب ونظام في الطقوس الكنسية، يخفي وراءه معنى عميقًا، ولهذا فكلما مارست الكنيسة الطقوس يفهم العمق الروحي من ممارسة هذا الطقس، وخدمة القديس الإلهي^(٤) أي تقديس سر الإفخارستيا^(٥)، هي أهم هذه الطقوس في الكنيسة، وهو سر من أسرار الكنيسة السبعة، وترتيبه يرجع إلى الآباء الرسل أنفسهم، وقد استلموه من الرب نفسه، حينما أسسه يوم خميس العهد، في عليّة صهيون في بيت مار مرقس الرسول. وقد استمرت صلوات القديس تعتمد على التلقين من جيل إلى جيل، حتى عهد البابا «أثناسيوس الأول» البطريك رقم (٢٠)، (٣٢٨-٣٧٣م)، الذي سام

(١) هيو ج. إيفلين هويت: المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٢) طقس: كلمة يونانية مشتقة من (طاكسيس)، وهي تعني في الأصل اليوناني ترتيب أو نظام.

(٣) قديس: كلمة تعني تقديس النفس بالقداسات الإلهية التي نتناولها (الجسد والدم) لذلك يقول الكاهن القداسات للقديسين، أما فعل القديس التائب بالقداسات الإلهية، وهذا معني قول الكاهن القداسات للقديسين، وتعني أن الناس الذين تقدسوا بالتوبة والاعتراف ونقوا أنفسهم بنالوا القداسات الإلهية. الأبا بنيامين، القديس الإلهي في اللاهوت الطقسي، موقع الأبا تكلا.

<https://st-takla.org/Coptic-Faith-Creed-Dogma/Coptic-Rite-n-Ritual->

(٤) القديس: كلمة القديس كلمة في اللغة القبطية تعني (أنافورا)، وأخذها السلايان عنا ودعوها (نافورا)، وتعرف في اللغة اليونانية باسم (أفخولوجيون)، ويسميه اللاتينيين (ليتورجيا) من (ليتوس) أي عمومي أو جماعي و(أرغون) أي عمل. فتعني بذلك عملاً جماعياً، وكانت تطلق على أي نوع من الأعمال الجماعية، حتى ولو كانت أعمال مدنية، إلا أنها فيما بعد خصصت للدلالة على الإفخارستيا أي القديس الإلهي، للمزيد انظر يوحنا سلامة (القمص)، اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ج ١، ط ٥، مكتبة مارجرس شيرا مصر، القاهرة، ص ٢١٠.

(٥) طقس: كلمة يونانية مشتقة من (طاكسيس)، وهي تعني في الأصل اليوناني ترتيباً أو نظاماً.

أول أسقف لبلاد الحبشة باسم الأنبا «فرومتيوس» وأرسله إليهم نحو عام (٣٣٠م) لنشر الإيمان هناك، وسلمه أيضاً القديس الإلهي مكتوباً، ولهذا اعتبر البابا أثناسيوس أول من دون القديس الإلهي مكتوباً^(١).

والقديس هو حضور فائق لله من خلال الذبيحة المقدسة علي المذبح وحلول الروح القدس، فائق عن حلوله في أي صورة، لذلك يقال اسجدوا لله بخوف ورعده، لأن الروح القدس يحول الخبز والخمر إلى جسد ودم. فالقديس الإلهي هو حضور فائق لله بصورة فائقة للطبيعة يقدر كل من يلتصق به من خلال تناول ذلك يعتبر تناول مكافأة لكل من يجاهد وليس لأي شخص، والقديس عملياً هو مجموعة من الكلمات والألحان والحركات وضعها الروح القدس مع القديس الذي وضع القديس^(٢).

القديسات المستعملة في الكنيسة القبطية:

١- القديس الباسيلي: نسبة إلى القديس باسيليوس الكبير رئيس أساقفة الكبادوك "القرن الرابع الميلادي"، وفيه يخاطب الله الآب، الذي أحبنا وصالحنا بابنه يسوع المسيح ربنا الذي أرسله لفدائنا^(٣)، وهذا القديس يتميز بسهولة ألحانه واختصار صلواته، وتصلى به الكنيسة في الأيام السنوية المعتادة.

٢- القديس الغريغوري: نسبة إلى القديس غريغوريوس الثيولوجوس المعروف بالناطق بالإنبيات أسقف القسطنطينية في عام ٣٧٩م، أي في القرن الرابع الميلادي، اهتم بوضعه.

(١) الإفخارستيا: هي كلمة يونانية معناها الشكر ولها أكثر من معنى منها: سر الشكر، مائدة الرب، المائدة الربانية، العشاء السري، الرباني، سر تناول، الأسرار الإلهية، المائدة الرهيبة، الذبيحة المقدسة، الجسد والدم، الأسرار الرهيبة، الذبيحة الغير الدموية، خبز الحياة، المائدة المقدسة، الخبز السماوي، طعام الحياة، سر الأسرار الوليمة الإلهية، القديس المقدس، الوليمة السماوية، السرائر المقدسة، السر المجيد، والجسد والدم الآلهيان، إلى غير ذلك من الأسماء الدالة على سموه وعظمته، انظر: جرجس صموئيل عازر، الإفخارستيا أو القول السديد عن السر المجيد، مكتبة مار جرجس شبرا مصر، القاهرة، ١٩٣٥م، ص ٢٦.

(٢) بنيامين، الأنبا: القديس الإلهي في اللاهوت الطقسي، موقع الأنبا تكلا.

<https://st-takla.org/Coptic-Faith-Creed-Dogma/Coptic-Rite-n-Ritual>

(٣) الكتاب المقدس: (يو ٣: ١٦)، (غل ٤: ٤).

وفيه يخاطب ابن الله يسوع المسيح، الذي تجسد لأجل خلاصنا، وبذل ذاته على عود الصليب فداً عنا وكفارة لخطايانا، وتصلي به الكنيسة غالباً في الأعياد السيديّة، وتتميز الحانه بالطول والعمق.

٣- القداس الكيرلسي: واضع هذا القداس هو القديس مارمرقس الرسول، ثم جاء القديس كيرلس الكبير البطريرك الرابع والعشرون من بابوات الكنيسة القبطية، حيث قام بتنقيحه وإضافة بعض الألحان والصلوات إليه، وللاسف فإن كثيراً من ألحان هذا القداس قد فقدت لقلّة استعماله، وتصلي به الكنيسة غالباً في أثناء الصوم الكبير^(١).

ونظراً لأن اللغة اليونانية كانت هي اللغة الرسمية في مصر، كما أنها لغة العلم والثقافة في ذلك الوقت، لذلك وضعت القداسات باللغة اليونانية، ثم ترجمت إلى اللغة القبطية باللهجة البحرية، مع الاحتفاظ ببعض الجمل اليونانية. وبعد دخول العرب لمصر ٦٤١م، وخاصة أيام الخليفة «عبد الملك بن مروان بن الحكم» (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٥-٧٠٥م)، الذي أصدر قرار بتعريب الدواوين، وواصل خلفاؤه القضاء على اللغات الأجنبية ومنها اللغة القبطية، التي بدأت شيئاً فشيئاً يقل استخدامها بين عامة الناس، وقصر استعمالها على العبادة داخل الأديرة والكنائس، ومع هذا استمر أهل الصعيد في التحدث بها خصوصاً في بعض الجهات، نذكر منها نقادة وقوص واخميم، وبالرغم من ذلك تأثرت باللغة العربية، ولهذا ضعفت اللغة القبطية، ولكن هناك أسر في مصر ما زالت حتى يومنا، تمارس اللغة القبطية في المنازل، وظل القداس باللغة القبطية حتى عهد البابا «غبريال الثاني» (١١٣١-١١٤٥م) الذي أصدر قرار بقراءة الأناجيل والمواعظ التي تخص القداس الإلهي باللغة العربية لفائدة الشعب^(٢). ولكن الكنيسة ما زالت تصلي بالقبطية إلى جوار العربية حتى لا يضيع التراث الأبائي الأصيل^(٣).

(١) لمزيد من التفصيل انظر: دير السيدة العذراء (المحرق): كتاب الخولاجي، دير السيدة العذراء المحرق، أسيوط ١٩٩٠م، ص ٤٧٦، ٢٨٦، ١٦٨.

(٢) ماجد عزت إسرائيل: الأقباط والمشاركة الوطنية في العصر الحديث (دراسة تاريخية وثائقية)، منتدى الشرق الأوسط للبحريات، القاهرة ٢٠١٥م، ص ٥٣.

(٣) زكريا السرياني (الراهب): القداس الإلهي، مراجعة وتقديم الأنبا رافائيل، دير السريان ٢٠٠٥م، ص ١٣-١٨.

ويذكر أن الآلة الموسيقية لا تصاحب هذه الألحان في الليتورجيا المقدسة (القداس الإلهي)، وهو أسلوب عرف في الكنيسة القبطية وانتشر في العالم باسم «أكابيللا» (Acappella) الأسلوب الذي اشتهر به الموسيقار «باليستريا» في القرن السادس عشر، وقد يصاحب الألحان الفرائحي، آلة الناقوس Cymbals والمثلث Triangle لضبط الإيقاع، ولإعلان حالة الفرحة التي تعيشها الكنيسة في هذه المناسبة، إلا أنه يمكن تقديم هذه الألحان بالآلات الموسيقية خارج الليتورجيا المقدسة^(١).

ولم يفت الرحالة الزائرين لأديرة وادي النظرون حضوراً القداس الإلهي بكنيسة الدير، ولذلك سجل لنا بعضهم طقوس هذا السر العظيم فذكر الأب كلود سيكار (١٦٧٧-١٧٢٦م) أن رهبان دير القديس مقاريوس كانوا يقيمون القداس كل يوم أحد، وأيام الأربعاء والجمعة خلال الأصوام في السنة، فيما عدا ذلك كانوا يقيمون قداساً واحداً هو يوم الأحد من كل أسبوع^(٢). وربما ليتنى للآباء الشيوخ ساكني المغارات البعيدة عن الدير حضور القداس. أما حالياً فيقام كل يوم قداس وربما أكثر من قداس في ذات اللحظة، وذلك يرجع إلى كثرة الرهبان والعاملين بالإضافة لكثرة الزائرين والكنائس بالأديرة.

وتبدأ صلاة القداس الإلهي من عشية اليوم السابق للقداس، وقد جرت العادة أن يدخل الكهنة والشمامسة والشعب إلى الكنيسة جماعات وأفراد بكل خشوع وتقوى وأدب وتوقير، قاصدين الصلاة والطلبه وتمجيد الله في صلاة عشية أو صلاة نصف الليل، أما صلاة عشية أو (المساء) فإنهم أول كل شيء يصلون صلاة المزامير، وبعدها يقول المرتلون المزمور رقم (١١٦)، بلحنه المعروف أو دمجاً ويقولون من هوسات التسبحة الأربع، الهوس الرابع^(٣) وهو المزمور رقم ١٤٨، و١٤٩، و١٥٠ قبطياً، ثم إبصالية الحاضر إن كان عيداً سيدياً أو غير سيدي أو صوماً، وإن كان لم يكن شيء من ذلك فيقولون الإبصالية السنوية لليوم الحاضر من

(١) جريدة وطني: بتاريخ ٧ يوليو ١٩٩٦م، ص ٨.

(٢) هيوج.ج. إيفلين هوایت: المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٣) الهوس الرابع: وهو المزمور رقم ١٤٨، و١٤٩، و١٥٠.

الأسبوع إن كان السبت أو غيره. ثم يقولون تداكية أو تذاكية (ثيؤطوكية)^(١) اليوم الحاضر من الأسبوع، وبعدها يقولون الدفنار^(٢) الذي لليوم التالي من الشهر، وبعدها يقال الأربعاء التداكيات الواطس^(٣) فقط التي هي تداكيات الأربعاء والخميس والجمعة والسبت. ثم يتبدى الكاهن برفع بخور عشية، وبعدها يتم استكمال القراءات الخاصة بالعشية، وهنا تتلى الصلاة بالألحان؛ والعشية هي جزء لا يتجزأ من اليوم التالي أي يوم القداس، وأن صلاة عشية العيد وألحانها وإنجيلها تكون موافقة ليوم العيد الآت. وبعد صلاة العشية، تبدأ صلاة نصف الليل في كل أيام السنة فإنهم أول كل شيء يصلون صلاة المزامير التي لنصف الليل خاصة. وبعدها يقول المرتلون التسبحة قبطياً^(٤).

وقد ذكر الرحالة الألماني قسطنطين تشيندورف، أنه حضر القداس الإلهي بدير القديس مقاريوس وهو يتفق تماماً مع ما وصفه الرحالة تشارلز سنونيني، حيث كتب تشيندورف قائلاً: «حضرت قداساً امتد إلى أكثر من ثلاث ساعات»^(٥). وكانوا يتدئون صلاة القداس بصلاة

(١) ثيؤطوكوس: كلمة يونانية تعنى والدة الإله، والمقصود بها ما يخص والدة الإله أو ما يقال لها، وهي تساوي كلمة تذاكية، أو تاودوكية، وتكتب أيضاً تذاكية، والثيؤوطوكية نهي عبارة عن مديح وتطويب للقديسة العذراء مريم لأنها ولدت لنا الله الكلمة المتجسد. ولكل يوم من أيام الأسبوع ثيؤكوطيته الخاصة به.

(٢) الدفنار: هو كتاب به شرح و مديح لقديس اليوم، وهو نفس فكرة السنكسار، ولكن بطريقة ملحنة وبال يوناني يقصد بها صوت مقابل صوت أو مجموعة تقابل مجموعة، والدفنار يستخدم في التسبحة ويحكي سيرة قديس اليوم ولكن بطريقة فيها لحن.

(٣) الواطس أو لحن فاطوس: وهي تشتق من كلمة «فاطوس»، «فاطس»، «باطوس»، ومعناها «العُليقة»، وسميت كذلك لأنها وقعت على تذاكية الخميس، والتي مطلعها (العليقة التي رآها موسى النبي في البرية والنيران مشتعلة فيها ولم تحترق أغصانها) والواطس نعمة للحن ولكن تكون أطول من النعمة الآدم، ويقال بهذه النعمة أيام الأربعاء، الخميس، الجمعة، السبت. أما لحن آدام هي نعمة صغيرة وقصيرة لبعض ألحان التسبحة، مثل الإصاليات والتداكيات والذكصولوجيات. ويقال بهذه النعمة أيام الأحد، الإثنين، الثلاثاء، وتشير إلى آدم. وسميت كذلك لأنها وقعت على أول تذاكية يوم الإثنين والتي مطلعها (آدم فيما هو حزين سر الرب أن يردده إلى رئاسته). ونعمة الآدم هي نعمة أقصر من نعمة الواطس.

(٤) دير السيدة العذراء (المحرق): كتاب الخولاجي، المرجع السابق، ص ١-٣.

(٥) هيو ج. إيفلين هويت: المرجع السابق، ص ١٨٠-١٨١.

باكر، فيصلي الكاهن أو شيتي المرضى والمسافرين في جميع أيام الأسبوع ما عدا الأحد (يوم الرب ليس فيه سفر)، لا يصلي أو شية المسافرين، أما في الآحاد والأعياد السيديية (ملك لله) يصلي الكاهن أو شيتي المرضى والقرايين، لأن الكنيسة تفترض أن ليس أحد يسافر في هذه الأيام للتفرغ للصلاة. وهنا يجب أن نسجل أن الحمل (القربانة) لا يدخل إلا بعد رفع بخور باكر مع لحن (تين أو أوشت) وهو شبيه باللحن العسكري، أما في الأعياد يقدم الحمل مع لحن (إبؤورو) ولا يدخل طبق الحمل إلى الهيكل فالذي يدخل إلى الهيكل (القربانة الحمل) فقط وليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداءً أبدياً^(١).

وهنا لا بد أن نسجل أن قربان الحمل الذي يتم اختيار قربانة واحدة منه وهي التي تعرف بـ(قربانة الحمل)، لا بد أن يكون بمواصفات معينة، حيث لا بد من أن يتأكد الكاهن من أن خبز القربان الذي يقدم ليرفع على المذبح خبز يومه، ولا يبيت إلى الغد، ولا يكون مكسوراً، بل سالمًا من العيوب، وعدد القرايين المقدمة للحمل إذ يجب أن يكون العدد فردياً (٣، ٥، ٧، ..) وتكون الثلاثة ثقبوب الموجودة بالقربانة عن يمين الكاهن الخديم^(٢)، وهذا ما أكدته الرحالة الأب كلود سيكار (١٦٧٧-١٧٢٦م) الذي زار أديرة وادي النظرون حيث ذكر قائلاً: «يوجد فرن خاص كما في سائر الأديرة والكنائس القبطية لخبز القربان المستعمل في الافخارستيا (القداس الإلهي)، وهو يعمل على شكل كعك مستدير صغير»^(٣). أما قسطنطين تشيندورف فقد ذكر في ذلك السياق قائلاً: «وأن هذا الخبز - القربان - يصنع على شكل أرغفة مستديرة مثل كعكة صغيرة في حجم كف اليد..، ويختم على قمته (على السطح العلوي) بصلبان كثيرة. وتؤكل إحداها على المذبح، والباقي يوزع بين الجماعة بعد القداس»^(٤).

(١) الكتاب المقدس: (عب ٩: ١٢).

(٢) بنيامين، الأنبا: القداس الإلهي في اللاهوت الطقسي، موقع الأنبا تكلا.

<https://st-takla.org/Coptic-Faith-Creed-Dogma/Coptic-Rite-n-Ritual>

(٣) هيو ج. ج. إيفلين هويت: المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٤) نفسه: ص ١٨٠-١٨١.

وكان الكاهن قبل تقديم الحمل يغسل يديه ثلاثة دفعوع، وهو يقول في المرة الأولى «تنضح علي بزوفاك فأطهر تغسلني فأبيض أكثر من الثلج»^(١) وفي المرة الثانية «تسمعي سروراً وفرحاً فتتهج عظامي المتواضعة»^(٢) وفي المرة الثالثة أغسل يدي بالنقاوة وأطوف بمذبحك يا رب لأسمع صوت تسيحك»^(٣) ثم يجفف يديه جيداً في ستر كتان نظيف. وبعدها يأخذ الكاهن اللفافة المعدولة من فوق الصينية، ويضعها على رأسه أو على يده اليسرى في كم التونية^(٤). ويأخذ الصليب بيده اليمنى ثم يتقدم ويقف على باب الهيكل ووجهه على الغرب، وأمامه طبق الحمل يحمله أكبر الموجودين رتبة إكراماً للحمل وعلى يمينه شماس يمسك بقارورة الخمر، بعد ذلك يأخذ الكاهن القارورة من الشماس ويستبرئها، ويشارك معه الكاهن أو الشماس، الذي يحمل طبق الحمل والشماسين اللذين يحملان دورق الماء وقارورة الخمر إذ يجب أن يتأكد من نقاوة الأباركة (aparxh)، وعدم ميلها للتخليل وألا تكون الأباركة من الخمور المطبوخة بالنار^(٥). وقد أكد الرحالة الألماني قسطنطين تشيندورف أن قارورة الخمر التي تستخدم في سر التناول أو الإفخارستيا على وجه الخصوص ليست من النيذ، حيث ذكر قائلاً: «فبدلاً من النيذ يستعملون عصير عنب سميك، ظننت أنا نفسي أنه زيت»^(٦).

يضع الكاهن يديه متقاطعتين على هيئة صليب على أن تكون اليد اليمنى فوق اليد اليسرى على مثال بركة يعقوب لابني يوسف^(٧) وهو يقول: «ليختار الله له حملاً بلا عيب» ويأخذ قربانتين بيديه ويبدأ يفحصهما لاختيار أحسنهما. فإن كانت الأفضل هي التي في اليد اليمنى يضع القربانة التي في يده اليسرى في الطبق، ثم يأخذ بيده اليسرى قربانة أخرى، ويقارنها

(١) الكتاب المقدس: (مز ٥٠: ٧).

(٢) الكتاب المقدس: (مز ٥٠: ٨).

(٣) الكتاب المقدس (مز ٢٥: ٦-٧).

(٤) دير السيدة العذراء (المحرق): كتاب الخولاجي، المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٥) بنيامين، الأنبا: القداس الإلهي في اللاهوت الطقسي، موقع الأنبا تكلا.

<https://st-takla.org/Coptic-Faith-Creed-Dogma/Coptic-Rite-n-Ritual>

(٦) هيوج.ج. إيفلين هوایت: المرجع السابق، ص ١٨٠-١٨١.

(٧) الكتاب المقدس: (تك ٤٨: ٤).

بالقربانة التي في يده اليمنى فإن كانت القربانة التي في يده اليسرى أفضل، ينقلها إلى يده اليمنى وينقل التي في يده اليمنى لليسى، مع ملاحظة أن تكون القربانة الأفضل أي المختارة من فوق في أثناء عملية النقل من يد إلى الأخرى ويضع الأخرى غير المختارة في الطبق ويأخذ غيرها ليعمل مقارنة كما سبق شرحه، مكرراً هذه العملية مع كل القربان الموجود في طبق الحمل حتى يختار أفضل قربانة من حيث سلامة الإسباديقون^(١)، وعدد الثقوب وعدم وجود تشققات واستدارتها، وعدم وجود أي شيء لصق بها في أثناء الخبيز واختيارها جيداً ووضوح الختم ووجوده في مركز القربانة^(٢). وبعد اختيار أفضل قربانة يلامس جانبها مع باقي القربان مع ملاحظة أن القربانة المختارة تكون في يده اليمنى وتكون معدولة دائماً أي لا تقلب^(٣). أما باقي قربان الحمل فيوزعه الكاهن عقب خدمة القديس الإلهي، وهذا ما أكدته الرحالة تشارلز سونيني (١٧٥١-١٨١٢م) الذي زار أديرة وادي النظرون حيث ذكر قائلاً: «خلال القديس الإلهي يبارك القس قربان الحمل الصغيرة المستديرة المخبوزة. ويختار قربانة واحدة للإفخارستيا، أما القربان الآخر فيوزعه عقب انتهاء خدمة القديس»^(٤).

بعد ذلك يأخذ الكاهن اللفافة من كفه أو من فوق رأسه ويضعها على راحة يده اليسرى، بحيث تكون اللفافة مقلوبة ويضع فوقها القربانة المختارة ويمسحها باللفافة مسحاً جيداً من فوق وأسفل؛ بشرط أن لا يقبلها في أثناء المسح بل يحرك حولها اللفافة وينفض اللفافة مما علق بها من دقيق، ثم يعدل اللفافة على يده اليسرى ويضع فوقها القربانة، بحيث تكون الثلاثة ثقوب عن يمينه، ثم يبلل إبهام يده اليمنى بالخمير، وذلك يوضع إصبعه على فوهة القارورة،

(١) الإسباديقون: أو إسباديكون، اسبوتيكون، ازباديقون وهي كلمة مُعَرَّبَةٌ عن الكلمة اليونانية، أي الخاص بالسيد الرب أي السيدى. وتطلق على الجزء الرابع الموجود في وسط القربانة، والذي يشير إلى السيد المسيح له المجد وتُغَمَسُ في الكأس.

(٢) دير السيدة العذراء (المحرق): كتاب الخولاجي، المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٣) بنيامين، الأنبا: القديس الإلهي في اللاهوت الطقسي، موقع الأنبا تكلا.

<https://st-takla.org/Coptic-Faith-Creed-Dogma/Coptic-Rite-n-Ritual>

(٤) هيو ج. إيفلين هوايت: المرجع السابق، ص ١٦٩.

وهي في يد الشماس ثم يرشم بإصبعه وجه القربانة المختارة، وهو يقول: «ذبيحة مجد»، ثم يرشم القربان ذبيحة بركة، ذبيحة إبراهيم، ذبيحة إسحق، ذبيح يعقوب، ثم يرجع ويرشم ظهر القربانة المختارة وهو يقول ذبيحة ملكي صادق (دون أن يقبلها) بعد ذلك يأخذ الكاهن الخديم الصليب من طبق الحمل وييده الأخرى القربانة المختارة موضوعة فوق اللفافة ويصافح الكاهن الذي يحمل طبق الحمل ويقول له: «أخطأت حاللني» مستأذناً بالانصراف إلى الهيكل، أما إن كان شماساً يحمل طبق الحمل فيقول له: «أخطأت، سامحني»^(١).

بعدها يدخل الكاهن إلى المذبح وفي يده قربانة الحمل واللفافة والصليب، يضع اللفافة والصليب على المذبح ويبل أطراف أصابع يده اليمنى بالماء ويمسح بها القربانة من فوق ومن أسفل ومن جميع جوانبها على مثال عماد السيد المسيح. وفي أثناء مسح القربانة بيد الكاهن يقول: ”أعط يا رب أن تكون مقبولة أمامك ذبيحتنا عن خطاياي وجهالات شعبك، لأنها طاهرة كموهبة روح القدس بالمسيح يسوع ربنا هذا الذي له...“ ثم ينسكب على الحمل الذي بيده في صلاة سرية عميقة يذكر فيها خطايا شعبه ومشكلاتهم وأمراضهم والمسافرين والراقدين والحزاني، وكل من طلب منه الصلاة من أجل موضوع معين... وتسمى هذه الصلوات بالتذكارات. ويختتم هذه التذكارات بالصلاة عن المسيحيين عمومًا قائلاً ”اذكر يا رب عبيدك المسيحيين الأرثوذكسيين كل واحد باسمه وكل واحدة باسمها. اذكر يا رب أبي وأمي وإخوتي وأقاربي الجسديين وآبائي الروحيين الأحياء منهم احفظهم بملاك السلامة، والراقدين نيحهم. اذكر يا رب ضعفي أنا المسكين واغفر لي خطاياي الكثيرة“^(٢). وبعد انتهاء التذكارات السابقة يصلي الكاهن سرًا مقدمات الثلاث أوأش الصغار وهي السلامة، والآباء، والاجتماعات^(٣)، ويمسك الكاهن القارورة بيده اليسرى ويضعها على أول قربانة من ناحيته

(١) بنيامين، الأنبا: القداس الإلهي في اللاهوت الطقسي، موقع الأنبا تكلا.

<https://st-takla.org/Coptic-Faith-Creed-Dogma/Coptic-Rite-n-Ritual>

(٢) دير السيدة العذراء (المحرق): كتاب الخولاجي، المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٣) بنيامين، الأنبا: القداس الإلهي في اللاهوت الطقسي، موقع الأنبا تكلا.

<https://st-takla.org/Coptic-Faith-Creed-Dogma/Coptic-Rite-n-Ritual>

ويرشم ذاته بالصليب «خين إفران...» ثم يرشم على الخبز والخمر الثلاثة رشومات المعروفة ثم يمسك القارورة بيده اليمنى، ويرشم بها الحمل على هيئة صليب وهو يقول ”مجدًا وإكرامًا، إكرامًا ومجدًا، للثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس...“. ثم يعطي قارورة الخمر للشماس ويضع الصليب في طبق الحمل^(١).

بعدها يدخل الكاهن إلى المذبح وفي يده قربانة الحمل واللفافة والصليب، يضع اللفافة والصليب على المذبح ويبل أطراف أصابع يده اليمنى بالماء ويمسح بها القربانة من فوق ومن أسفل ومن جميع جوانبها على مثال عماد السيد المسيح. وأثناء مسح القربانة بيد الكاهن يقول: «أعط يا رب أن تكون مقبولة أمامك ذبيحتنا عن خطاياي، وجهالات شعبك، لأنها ظاهرة كموهبة وروح القدس بالمسيح يسوع ربنا هذا الذي له...». ثم ينسكب على الحمل الذي بيده في صلاة سرية عميقة وتسمى هذه الصلوات بالتذكارات. ويختتم هذه التذكارات بالصلاة عن المسيحيين عمومًا قائلاً: ”أذكر يا رب عبيدك المسيحيين الأرثوذكسين كل واحد باسمه وكل واحدة باسمها. اذكر يا رب أبي وأمي وإخوتي وأقاربي الجسديين وآبائي الروحيين الأحياء منهم احفظهم بملاك السلامة، والراقدين نيحهم. اذكر يا رب ضعفي أنا المسكين واغفر لي خطاياي الكثيرة“.

وبعد انتهاء التذكارات السابقة يصلي الكاهن سرًا مقدمات الثلاث أواسي الصغار، بعد ذلك يستكمل الكاهن الصلاة بدورة الحمل والرشومات وصلاة الشكر، ويقول أوشية التقديمة وتحليل الخدام، بعدها يبدأ قداس الموعوظين حيث دورتا بخور البولس^(٢) والإبركسيس وقراءة كلاهما، يقرأ السنكسار بعد الإبركسيس ويلاحظ في الخمسة عشر يومًا الأولى من الشهر يقول: «أحسن الله استقباله»، وفي الخمسة عشر يومًا الأخيرة من الشهر يقول «أحسن الله انقضاءه»، وقد جرت العادة ألا يقرأ السنكسار في فترة الخماسين بل تحمل مكانه دورة القيامة^(٣). ثم بعد

(١) دير السيدة العذراء (المحرق): كتاب الخولاجي، المرجع السابق، ص ١٨١.

(٢) بعد قراءة البولس يتم قراءة الكاثوليكون، ثم الإبركسيس، ثم السنكسار.

(٣) بنيامين، الأنبا: القداس الإلهي في اللاهوت الطقسي، موقع الأنبا تكلا.

ذلك أوشية الإنجيل والأوشي الكبار وهي أوشية السلام وأوشية الآباء وأوشية الاجتماعات. ثم يقول الكاهن قانون الإيمان وصلاة الصلح في القديس الباسيلي، وبعدها يبدأ فيما يعرف بقديس المؤمنين ويقول هنا قطعة «مستحق وعادل»^(١) وبعدها يرشم ثلاثة رشومات وهو يقول «آجيوس»^(٢).

وبعد ذلك يضع الكاهن يد بخور في المجرمة، وهو يقول: «تجسد وتأنس»، وعندما يقول: «نزل إلى الجحيم من قبل الصليب»، ينحني الكاهن بخشوع واضعاً يديه على صدره على مثال الصليب ويقبل المذبح. ثم يصلي الكاهن قطعة «نوقام من الأموات...» وعندما يقول «ويعطي كل واحد حسب أعماله» يقرع على صدره بخشوع ثلاث مرات نادماً علي خطاياها. وبعدها يواصل الكاهن الصلاة بصلاة التقديس، وهنا يشير الكاهن بيديه إلى الخبز، وهو يقول: «لأن كل مرة تأكلون من هذا الخبز»^(٣). ثم يشير على الكأس عندما يقول «وتشربون من هذه الكأس». بعد ذلك يركع الكاهن أمام المذبح ساجداً باسطاً يديه على المذبح، وهو يقول سرّاً أوشية حلول الروح القدس، حيث يذكر قائلاً: «نسألك أيها الرب إلهنا نحن عبيدك غير المستحقين ونسجد لك بمسرة صلاحك». وعندما يقول «ليحل روحك القدوس علينا» يشير إلى ذاته وعندما يقول: «وعلى هذه القرابين الموضوعة» يشير إلى الخبز والخمر، ثم يكمل «ويطهرها ويحولها ويظهرها قدساً لقيديسيك»، وبعد ذلك يقوم الكاهن ويرشم الخبز ثلاث رشومات بسرعة، ويواصل الصلاة ثم يركع أمام المذبح ويصلي سرّاً، ثم يقف ويقول جهراً «وحياة أبدية لمن يتناول منه» ثم يغطي الكأس ويأخذ اللقائف على يديه ليبدأ في صلاة الأوشي والمجمع والترحيم^(٤).

(١) حسب ترتيب القديس الباسيلي.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: دير السيدة العذراء (المحرق): كتاب الخولاجي، المرجع السابق، ص ٢٢٧-٢٨٣.

(٣) بنيامين، الأنبا: القديس الإلهي في اللاهوت الطقسي، موقع الأنبا تكلا.

<https://st-takla.org/Coptic-Faith-Creed-Dogma/Coptic-Rite-n-Ritual>

(٤) لمزيد من التفصيل انظر: دير السيدة العذراء (المحرق): كتاب الخولاجي، المرجع السابق، ص ٢٨٥-٣٣٠.

وبعدها يصلي الكاهن أولئك يا رب، واهدنا إلى ملكوتك، والقسمة المقدسة (الجسد المقدس والدم الكريم) وفي نهاية القسمة يصلي جميع الحاضرين الصلاة الربانية، ويصلي الكاهن صلاة الخضوع والتحليل، ورشومات ما قبل الاعتراف والاعتراف، ثم يعطي السلام للشعب قائلاً: «السلام لجميعكم». بعد ذلك يعيد رسم الجسد وصبغ الجروح بالإسبديقون مرة ثالثة وهو يقول: «مقدس وكريم جسد ودم حقيقي....» بعد ذلك يقلب الكاهن الإسبديقون ويحمله بين أصابعه مقلوباً ويرفعه إلى الكأس ويرشم به الدم ثم يضعه في الدم مقلوباً. وهو يقول «جسد ودم عمانوئيل إلهنا»^(١). بعد ذلك يغطي الكأس ويرفع الصينية على يديه ويقول الاعتراف وعندما ينتهي منه يضع الكاهن الصينية في مكانها على المذبح ويركع أمام المذبح ويصلي الصلوات السرية وهي «كل مجد وكل كرامة....»، «يا رئيس الحياة..»، «واجعلنا مستحقين....» ثم «حل واغفر واصفح لنا» ثم «يا أبانا الذي في السموات» وفي أثناء الصلوات السرية التي يصليها الكاهن يمسك الشماس بيده اليمنى صلياً وبيده اليسرى شمعة موقدة ووسطها لفافة يضعها أمام عينيه ويقول اعتراف الشماس ويبدأ بعد ذلك التناول^(٢).

والحقيقة التاريخية أن الرحالة تشارلز سونيني، وصف لنا الأوضاع في أثناء توزيع الجسد والدم (التناول) حيث ركز على عدم النظام في الخدمة فذكر قائلاً: «فهم غالباً لا يعرفون ما ينبغي أن ينشدونه، فهذا ينشد ترنيمة أو مزمورا، وآخر تلك، فيحدث بسبب ذلك نزاع، بينما يرتل ثالث صلاة يتبعها الخورس، وهكذا ينهون الصراع، وفي خلال الخدمة لا يقف المجتمعون ولا يجلسون ولا يركعون، فهم يقفون على أقدامهم.. ويسندون أحقاهم بالحائط، وينحنون بأجسادهم إلى الأمام مستنديين على عصا على شكل حرف (T) وأوانيهم المقدسة. لا شيء سوى صوانٍ زجاجية من نوع معين، وهم يقدسون الخبز العام، وهذا يقطعه الكاهن إلى قطع صغيرة ويخلطها بشبه ماء مقدس.. ويأكلوا ملء معلقة منه، ثم يناولهم بنفس الطريقة بالمعلقة، وفي أثناء صلاة القداس، يرتدي القس قميصاً لونه أبيض وقلنسوة عليها صلبان صغيرة. وفي خلال

(١) بنيامين، الأنبا: القداس الإلهي في اللاهوت الطقسي، موقع الأنبا تكلا.

<https://st-takla.org/Coptic-Faith-Creed-Dogma/Coptic-Rite-n-Ritual>

(٢) دير السيدة العذراء (المحرق): كتاب الخولاجي، المرجع السابق، ص ٣٣١-٣٥١.

الصلوات الأخرى يتميز القس عن الشماسة والعلمانيين، فقط بشرط من الكتان الأبيض الذي عليه صلبان، يلف نصفه حول رأسه مثل عمامة، ويتدلى طرفاه، جزء من أمام، وجزء من خلف، وبعد نهاية الخدمة، يقبلون أكفان القديسين، فيدلون فيها أيديهم ويمسحونها. والأكفان المذكورة الأخيرة يزعمون أنها تحتوي على رفات سبعة قديسين، بما فيهم مكسيموس ودماديوس. أما العرب فيقولون إنها عظام جمال وحمير جمعها الرهبان من البرية..^(١).

كما وصف لنا الرحالة الألماني قسطنطين تشيندورف، الذي حضر صلاة القديس الإلهي بدير القديس مقاريوس بوادي النطرون، المرحلة الأخير من القديس وهي غسل الأواني وتوزيع البركة، حيث ذكر قائلاً: ”وقد أخذ الكاهن الخديم من الكأس الزجاجية معلقة واشرك معه الشماس الواقف مقابلة ثم مسح الباقي بأصبعه ولعقه، وسكب في الوعاء والصينية الزجاج بعض الماء، وشرب هو والشماس، وأخيراً لمس بيديه المبللتين جميع الإخوة الآخرين^(٢)، على جباهم وخدودهم“. ومن الجدير بالذكر أن تشيندورف حضر إلى القديس مبكراً، وكان واقفاً خارج الهيكل مع الرهبان عند شعيرة الجناح الرئيسي - أي كان معنى ذلك - مستنداً مثل جميع من بجانبه على عصا خشبية بمقبض مستقيم، تدعى عصا مقاريوس، وهي تمثل دائماً حضوره^(٣).

على أية حال، ذكر كل من سونيني وتشيندورف أن الكاهن الخديم ختم صلاة القديس الإلهي بالصلاة الربانية باللغة القبطية، وصرح الكاهن بالانصراف قائلاً: ”محبة الله الأب ونعمة الابن الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح وشركة وعطية الروح القدس تكون مع جميعكم، امضوا بسلام الرب معكم. ويجاوبه الشعب قائلين ومع روحك أيضاً^(٤). وأكد الأب كلود سيكار وتشيندورف على توزيع الكاهن الخديم القربان غير المكرس بعد القديس الإلهي على الرهبان والأعضاء البارزين من الجماعة^(٥)، بينما ذكر سونيني قائلاً: ”عقب انتهاء

(١) هيو ج. ج. إيفلين هويت: المرجع السابق، ص ١٦٩-١٧٠.

(٢) يقصد هنا تشيندورف الشماسة القائمين على خدمة القديس الإلهي.

(٣) هيو ج. ج. إيفلين هويت: المرجع السابق، ص ١٦٩-١٧٠.

(٤) دير السيدة العذراء (المحرق): كتاب الخولاجي، المرجع السابق، ص ٢٧٠-٣٧٣؛ الخولاجي المقدس، مكتبة المحبة، القاهرة ١٩٩٩، ص ١٤٣.

(٥) الجماعة: يقصد هنا الجماعة الرهبانية بالدير.

القداس تم توزيع القربان على الحاضرون، ولكن التوزيع لم يحدث قط بدون مشاجرة^(١). وذكر سيكار بعد القداس دعا الكاهن الخديم الحاضرون لتناول الأفطار (الأغابي)^(٢) بالقاعة الموجودة بالدير^(٣).

إدارة أديرة وادي النظرون:

التنظيم الإداري للدير:

١- رئيس الدير:

وأطلق عليه لقب أرشمندريت "رئيس المتوحدين" وتمييزًا له عن الرهبان القسوس والشامسة^(٤) منح لقب إيغامانوس^(٥) ومعناها باليونانية المدير، أو أمين الدير، ولم يكن هذا اللقب يمنح للعلمانيين ولكن لرؤساء الأديرة ثم سمح بمنحه للقسوس المتزوجين على شرط أن يكون قمص ماهرًا في كنيسته^(٦) ثم أصبح رئيس الدير منذ عام ١٨٩٧ م، ولأول مرة في تاريخ الرهبنة المصرية يمنح لقب أسقف حيث تم رسامة أيسوزورس أسقفًا^(٧) على دير البراموس،

(١) هيو ج. ج. إيفلين هويت: المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٢) الأغابي: كلمة يونانية، معناها محبة وتطلق على وليمة المحبة التي كانت تقيمها الكنيسة بعد القداس الإلهي. وهو وليمة للفقراء، يشترك فيها جميع الشعب معًا.

(٣) هيو ج. ج. إيفلين هويت: المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٤) الشامسة: ومفردها شماس يطلق على العلمانيين والمبتلين (الرهبان) وهو من يرتدي الملابس البيضاء ويقوم بالخدمة في أثناء القداس، لمزيد من التفصيل انظر: شنودة الثالث، البابا، الكهنوت، المرجع السابق، ص ٧٣.

(٥) إيغامانوس: وتعني بين رجال الأكليروس «القمص» وهي الرتبة التي تلي «القس» لمزيد من التفصيل انظر حبيب جرجس، المدرسة الإكليريكية بين الماضي والحاضر، د.ن، القاهرة ١٩٣٨ م، ص ٨٨.

(٦) رسالة مارميننا: المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٧) أسقف: يختص بالإشراف على منطقة دينية بعينها، وهو رئيس تلك المنطقة، ولقد أطلق لقب أسقف على السيد المسيح نفسه: «لأنكم كنتم كخراف ضالة، ولكنكم رجعتم الآن إلى راعي نفوسكم وأسقفها، انظر: الكتاب المقدس، رسالة بطرس الأول، الإصحاح الثاني، آية ٢٥؛ شنودة الثالث، البابا، الكهنوت، المرجع السابق، ص ٦٧.

ولكن التجربة لم تنجح لأنه سعى أن يكون رئيساً لأديرة شيهيت كلها، مخالفاً مبادئ وقوانين الرهبنة، بالسعي وراء المناصب؛ ولذلك تم تجريدته من رتبته بعد أن ثبتت مخالفته^(١).

ومن الشروط الواجب توافرها في رئيس الدير أن يكون من بين أقدم الرهبان سنًا في الرهبنة بالدير، حيث لا يتولى رئاسة الدير إلا راهب منه^(٢)، وحفاظاً لمبادئ وقوانين الرهبنة ومن تتوفر فيهم اللياقة والخبرة والحكمة والاستعداد للقيام بمهام منصبه، ولا يعد هذا الاختيار ساريًا إلا بعد موافقة مجمع رهبان الدير وتصديق البطريك على تعيينه^(٣). وقد ذكر الأب كلود سيكار (١٦٧٧-١٧٢٦م) أن جميع الرهبان في الدير يطيعون رئيسًا واحدًا و يخضعون له وهذه هي قاعدتهم الرئيسة فيكتب سيكار قائلاً: "لقد تهذبت بشدة عندما رأيت هؤلاء المتوحدين يطرحون، أنفسهم عقب خدمتهم في كل مساء، وقبل اعتكافهم في قلايهم، ويطرحون أنفسهم عند قدمي رئيسهم. ويعترفون بأخطائهم له. ويسألونهم الصفح وينالون بركاته"^(٤).

وبالرغم من هذه الشروط فأحياناً كان يتم اختيار رئيس الدير دون الالتزام بمبادئ الرهبنة وقوانينها، على سبيل المثال عُين القمص يوسف رئيساً لدير الأنبا مقار، الذي ترهب في دير السيدة العذراء بالبحرق؛ لأنه شقيق البابا ديمتريوس الثاني البطريك رقم (١١١) (١٨٦٢ - ١٨٧٠م)، مخالفاً بذلك للقوانين المتبعة والتي لا تزال قائمة بين الرهبان^(٥).

ومن أشهر رؤساء أديرة وادي النطرون القمص يوسف رئيس دير الأنبا بشوى^(٦) القديس مار ماروتا بن حبيب التكريتي، في حبرية البابا ألكسندروس الثاني البطريك رقم (٤٣)

(١) مجلة الكرازة: السنة ٢٦، العددان ٤٢٣، ٨ طوبة ١٧١٤ ش/ ١٦ يناير ١٩٩٨، ص ١١.

(٢) وثائق دير السريان: ملف رؤسا الدير، وثيقة رقم ٦١١، ٥ شوال ١٣٠١هـ/ ٢٩ يوليو ١٨٨٤م، انظر: ملحق رقم ١٥، ١٦، ١٧، ١٨.

(٣) وثائق دير السريان: وثيقة ٥٦٦، رمضان ١٢٩١هـ/ أكتوبر ١٨٧٤م؛ نفسه، مذكرة محفوظة بدير السريان بشأن قوانين الرهبنة منذ نشأتها حتى سنة ١٩٢٨، د، ت.

(٤) هيو ج. ج. إيفلين هويت: المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٥) صموئيل تاو وروس السرياني، المرجع السابق، ص ١١٣.

(٦) محكمة البحيرة: س ١١٦، م ١٠٣، ١٢ ربيع أول ١٢٨٤هـ/ ١٤ يوليو ١٨٦٧م، ص ١١٦، ١١٧ أنظر ملحق رقم ١٨.

(٧٠٤-٧٢٩م). وهو أول رئيس من الرهبان السريان على دير والدة الإله القديسة الطاهرة مريم في برية الأسقيط وذلك سنة ٧٢٠م^(١)، والقمص ميخائيل عبد المسيح رئيس دير السريان في عام ١٨٨٠م^(٢) والقمص بطرس رئيس دير البراموس ١٨٧٤م^(٣) ومنهم من صار بطريكاً مثل القمص ميخائيل المقاري رئيس دير الأنبا مقار الذي صار الأنبا ديمتريوس البطريك رقم (١١) (١٨٦٢-١٨٧٠م)^(٤) والقمص يوحنا رئيس دير البراموس الذي صار الأنبا كيرلس الخامس البطريك (١١٢) (١٨٧٤-١٩٢٧م)^(٥). ومنهم من رسم أسقفًا ثم رئيسًا للدير، نذكر على سبيل المثال الأنبا إيسيدوروس البراموسي - لا يزال حتى كتابة هذه السطور أطال الله عمره سنين عدة وأزمة سلامة - أسقف ورئيس دير البراموس، الذي تمت رسامته في ١٤ يونية ١٩٩٢م، وفي ذات اللحظة أصدر قداسة البابا شنودة الثالث، البطريك (١١٧) (١٩٧١-٢٠١٢م) قرارًا بتوليته رئيسًا للدير البراموس^(٦)، وأيضًا الأنبا أيفانيوس المقاري، أسقف ورئيس دير الأنبا مقار، الذي تمت رسامته أسقفًا في ١٠ مارس ٢٠١٣م، وفي ذات اللحظة صدر قرار من البابا "تواضروس الثاني" البطريك رقم (١١٨) (منذ عام ٢٠١٢م) حتى كتابة هذه السطور أطال الله عمره سنين عدة وأزمة سلامة^(٧).

وقد تعددت مهام رئيس الدير، فكان منها تنفيذ تعليمات البطريك، ومشاركته الاجتماع السنوي الذي كان يعقد لرؤساء أديرة مصر بالبطيركية بالقاهرة ومقرها الأزبكية، فكان متحدًا رسميًا باسم دير^(٨) وكان عليه توزيع الإخوة الراغبين في الرهبنة على شيوخ ومعلمي

(1) http://www.st-mary-alsourian.com/index.php?option=com_content&view=article&id.

(٢) محكمة البحيرة: س ١٦٥، م ٧٧٧، صفر ١٢٩٧هـ / ٢٠ يناير ١٨٨٠م / ص ١١٣-١١٤، انظر: ملحق رقم ١٥.

(٣) وثائق دير السريان: ملف رؤساء الدير، وثيقة رقم ٦٠٧، ذو الحجة ١٢٩١هـ / ديسمبر ١٨٧٤م.

(٤) عمر طوسون: المرجع السابق، ص ١٨٣، انظر: ملحق رقم ١٦.

(٥) صموئيل تاوضروس السرياني: المرجع السابق، ص ١٩٥.

(6) <https://st-takla.org/Saints/bishops/alif/isodoros-baramous.html>؛ ملحق رقم ١٧، انظر:

(٧) مجلة الكرازة: العدد ١٣ و ١٤، السنة الحادية والأربعون، بتاريخ الجمعة ٢٧ برمهات ١٧٢٩ ش / ٥ إبريل ٢٠١٣م.

(٨) وثائق دير السريان: وثيقة ١٢١٤، ٥ نوفمبر ١٩٠٥؛ توفيق إسكاروس، نواب الأقباط ومشاهيرهم؛ ج ٢، مطبعة التوفيق، القاهرة ١٩١٣، ص ٣١٢.

الدير لتدريبهم على الصلاة والصوم وقراءة الكتاب المقدس والتساييح والطقوس ومتابعتهم لاختيار أفضلهم لرسامته راهبًا بالدير، وفض ما ينشأ من مشكلات بين الرهبان^(١).

ومن واجباته أيضًا أن يقوم بضبط الإيرادات والمصروفات لتوفير التزامات الدير من المؤن والملابس والقناديل والشموع وأدوات المذبح وتوزيع الهبات والإعانات على الفقراء والمحتاجين والجمعيات الخيرية^(٢) وعليه عمل كل ما يلزم للمحافظة على مباني الدير وأملاكه والسهر على راحة رهبانه، ولا ينفرد بالسلطة دون الرجوع للبطيريك أو القائم مقامه^(٣).

٢- وكيل الدير:

وكان يختاره رئيس الدير من بين رهبانه، ومن شروط تعيينه أن يكون حسن السير والسلوك، وذا خبرة بإدارة الحسابات والأملاك، حيث كان مسؤولاً عن أوقاف الدير من أراض وعقارات^(٤) وكان مقره عزبة الدير، فعلى سبيل المثال كان القمص تاووروس السرياني يقيم بأتريس^(٥) والقمص أندراوس رئيس دير الأنبا بشوي بكفر داود^(٦).

٣- أمين الدير:

ويعرف بأقنوم^(٧) الدير أو الربيطة^(٨) وتعيينه من اختصاص رئيس الدير وبموافقة مجمع رهبانه وعليه أن يخطر البطيريك أو القائم مقامه بتعيينه، ومهمته أن يؤدي أعمال الرئيس في حالة غيابه، ويوزع الأعمال الشهرية على الرهبان كل حسب تخصصه، ويشرف على خزائن

(١) يوحنا كاسيان: المرجع السابق، ص ٤٤.

(٢) وثائق دير السريان: وثيقة ١٤٥٦، ٢٦ ديسمبر ١٨٨٥ م.

(٣) نفسه: وثيقة ١٣٦١، ٧ ديسمبر ١٨٩٦ م.

(٤) نفسه: وثيقة ٢١٠٨، ٨ صفر ١٢٢٥ هـ / ١٠ فبراير ١٨١٣ م.

(٥) نفسه: وثيقة رقم ٤٨٨، ٣ جمادى الأولى ١٢٩٦ هـ / ٢٥ إبريل ١٨٧٩ م.

(٦) نفسه: ٤٦٢، ٢٠ برمهات ١٦٠٨ ش / ١٨٩٢ م.

(٧) أقنوم: كلمة يونانية محرفة من أيوكونوموس ومعناها متصرف أو رب بيت، انظر: عبد المسيح المسعودي، المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٨) الربيطة: هي كلمة سريانية معربة من (راب بيتا) ومعناها كبير البيت، نفسه، ص ١٧٨.

الدير وأثاثاته ومكتبته وحديقته والراغبين في الرهبنة، ويشارك الرئيس في اختيار ورسامة الرهبان^(١) وقراءة سير القديسين من كتاب "بستان الرهبان" في أثناء تناول الرهبان وجبة الإفطار بعد صلاة قداس الأحد من كل أسبوع^(٢). وأيضاً كان يقوم بمساعدة الرحالة الزائرين للدير أو بمعنى آخر مرشد سياحي، فقد ذكر الرحالة فانسلب قائلاً: "لقد أخبرني ربيته أحد الأديرة بنقاط عديدة ذات أهمية كان أولها طريق الملائكة الذي يقع بين دير الأنبا مقاريوس والأنبا يشوي"^(٣).

٣- خازن الدير:

وتعيينه من اختصاص رئيس الدير والربيته، حيث يشترط أن يكون أميناً ومنظماً وحافظاً لخزائن الدير، يعطى ما يؤمر به ببشاشة وقلب سليم، ولا يكون مجباً للنياح والأكل والشرب وحده دون إخوته (الرهبان) على مائدة الوسط المعروفة بجمعهم^(٤) ولا يستخف بأحد من الوافدين بل يكرمهم بما عنده، وأن يعتني بالمؤن حتى لا تتعرض للفساد، ولا يقدم أطعمة فاسدة معها كانت قيمتها، ولا يصرف شيئاً مما في عهده جليلاً كان أو حقيراً إلا بأمر الأمين للدير^(٥).

٤- القندلفت:

وهو خادم يعرف الآن بالأديرة باسم الكنسي، مسئول عن السرج (القناديل) ويوقدها باستمرار، وتظل الأنوار دائمة في الكنيسة لأن الكنيسة لدى المسيحيين هي نور العالم هي المنارة - كما سميت في سفر الرؤيا^(٦) - يستنير بها الناس، كما أضيف إلى وظيفته مهام أخرى منها إنارة الشموع على المذبح وأمام أيقونات القديسين، وتنظيم ونظافة الكنيسة عقب صلاة القداس^(٧).

(١) وثائق دير السريان: وثيقة رقم ٦٠٥، ١٦١٣ش / ١٨٩٧م.

(٢) عمر طوسون: المرجع السابق، ص ١٧٤.

(٣) هيو ج. ج. إيفلين هويت: المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٤) يوحنا كاسيان: المرجع السابق، ص ٥٢.

(٥) رسالة مارميننا: المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٦) الكتاب المقدس: رؤيا يوحنا اللاهوتي، إصحاح ٢٢.

(٧) مجلة الكرازة: السنة ٢٣، العددان ٤٥، ٤٦، ٢٦ هاتور ١٧١١ش / ١٨ ديسمبر ١٩٩٥، ص ١٤.

٥- بواب الدير:

وقد ذكر الرحالة أندريوسي أن الدخول إلى أديرة وادي النظرون لم يكن عن طريق قرع الباب كالعادة، لأن القرع لا يسمعه الرهبان لبعدهم عن الباب عنهم، بل العادة في الأديرة أن يعلقوا فوق السور عند باب الدير جرساً غير كبير، وينزلوا منه حبلاً إلى الأرض من خارج السور، فكل من أراد الدخول من الرهبان أو الناس يجذب الحبل فيدق الجرس^(١) وتطلب ذلك أن يكون البواب الموكل بباب الدير لين القول للغريب والقريب متواضعاً جداً محتملاً للشيمة غير صياح ولا مستخف بفقير مسرعاً لإجابة كل من قرع الباب مكرماً لكل أحد على قدره، لا يصرح له بخروج لأحد الرهبان إلا بأمر رئيس الدير، ولا يدعهم يجتمعون عنده على باب الدير ويجلسون فيتحدثون بالهزل والباطل^(٢).

٦- أمين المكتبة:

يتم اختياره من بين الرهبان، حيث يشترط أن يكون محباً ومشغوفاً بالعلم، مجيداً بعض اللغات مثل القبطية والسريانية واليونانية والإثيوبية والإنجليزية، وذا خبرة بأنواع المخطوطات وطرق الاطلاع عليها، ويتمتع ببشاشة وحكمة في معاملة المترددين من الأخوة والرهبان، مسرعاً في تلبية طلبهم^(٣).

ومن مهامه إعداد فهراس المخطوطات وتصنيفها إلى طقوس وقوانين وميامر^(٤) وتنظيمها والعناية بها؛ بترميمها وصيانتها وتجليدها ونسخ المتهالك منها، وبتوجيه المترددين على المخطوطات إلى الطرق الاطلاع باستخدام منضدة القراءة وعدم الكتابة على المخطوطة حرصاً

(١) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٣.

(٢) دير السريان: مذكرة محفوظة بدير السريان، بشأن قوانين الرهينة منذ نشأتها وحتى ١٩٢٨ م، د، ص.

(٣) صموئيل تاو وروس السرياني: المرجع السابق، ص ١٥٦-١٦٣، انظر: ملحق رقم ٣.

(٤) ميامر: مفردتها ميمر وهي كلمة سريانية معناها قول أو مقالة فتطلق على أنواع كثيرة من الأقوال كالسير والتواريخ والمدائح والتمجيدات والوعظ والتعليم، لمزيد من التفصيل انظر: عبد السميع المسعودي، المرجع السابق، ص ١٨٠.

على سلامتها من ضياع النص وتساقط الألوان والزخارف المزينة بها، كما كان عليه أعداد
فهارس المراجع وتصنيفها حسب لغتها وموضوعها ليسهل على الباحث الاطلاع عليها^(١).

وبجانب هذه الوظائف الرئيسية، وجدت وظائف ثانوية نذكر منها:

١- **الطعام:** وهو الذي يعد الطبخ ويدق الناقوس فيأتي الرهبان إلى المطبخ فيأخذ الواحد
كفاية يومه وكل واحد يأكل في قلايته^(٢).

٢- **الطحان:** وهو المسئول عن استلام الغلال من الخازن وتنقيتها وطحنها وتحليلها بالمنخل
لفصل الدقيق عن الردة وخاصة الذي يستخدم في صناعة القربان^(٣).

٣- **الخباز:** وهو المسئول عن مخبز الدير، ومن مهامه توفير الوقود، والتأكد من صلاحية الدقيق
وعدم فساده، وقراءة المزامير أثناء عملية العجن، ومتابعة صناعة الخبز، وتعداده وإرساله
إلى المطبخ^(٤).

٤- **الصلوات:** وكان مسئولاً عن دق الناقوس في الساعة الخامسة في الشتاء وفي الثالثة صيفاً
فيجتمع الرهبان بالكنيسة ويأتي أمين الدير ويفتح الصلاة^(٥).

كما أسندت إلى الرهبان وظائف أخرى مثل دق الجرس وزراعة الحديقة وتنظيف الدير.

مصادر تمويل أديرة وادي النطرون:

تنوعت مصادر التمويل بأديرة وادي النطرون ويأتي في مقدمتها ما كان يكسبه كل راهب
عن طريق استغلال الموارد الطبيعية التي توجد بالدير بإدخالها في صناعات بدائية عن طريق

(١) لمزيد من التفصيل انظر: المادة ١٨، ١٩ من قوانين الرهبان، بالمذكرة المحفوظة بدير السريان بشأن قوانين

الرهبنة منذ نشأتها حتى ١٩٢٨ م، د، ص.

(٢) عمر طوسون: المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٣) مرتيروس السرياني، الراهب: تاريخ دير الأنبا يحنس كما القديم، المرجع السابق، ص ٣٦، ٨٢.

(٤) نفسه: ص ٣٥-٣٦.

(٥) عمر طوسون: المرجع السابق، ص ١٧٦.

عمل يديه مثل السلال والمقاطف من سعف النخيل وقتل الحبال من الليف، والحصير من السمار الذي ينمو بالوادي، ومن الصوف والكتان نسجوا الأقمشة^(١) وقد ذكر الرحالة عمر طوسون أن أحد الرهبان كان يتعهد بتسويق هذه المنتجات بأسواق القرى المجاورة أو استبدال حاجات لمعيشتهم بها، ويعطي ما يتم تحصيله من أموال لرئيس الدير ليتولى الإحسان على الفقراء والبائسين وتدير مصروفات الدير^(٢).

هذا بالإضافة إلى ما يكتسبه الرهبان في فترة الحصاد، حيث كانوا يذهبون إلى القرى المجاورة للحصاد مقابل حصولهم على أشياء عينية مثل القمح والشعير لتودع في مخازن الدير^(٣) كما شارك بعضهم في اقتلاع النظرون من بحيراته المنتشرة بالوادي مقابل أجر مادي^(٤).

كذلك ما كان يجمه أقباط مصر من النذور والقرابين تبركا وطلباً للشفاء من بعض الأسقام والأمراض والأرواح الشريرة والتي اشتهر بعلاجها بعض شيوخ الرهبان^(٥) بالإضافة إلى رغبة البعض من الأقباط في دفع العشور بأديرة الوادي، تنفيذاً لقول الكتاب المقدس: "هاتوا جميع العشور إلى الخزنة ليكون في بيتي طعام وجربوني"^(٦) ويضاف إلى ذلك التبرعات التي كان يدفعها الأقباط^(٧).

وأجمع الرحالة الزائرون لأديرة وادي النظرون على أهمية المصادر العينية، حيث ذكروا أن رهبان هذه الأديرة كانوا يعتمدون على التبرعات والهبات العينية من الفول والعدس والقمح

(١) مديرية البحيرة: س ١٠٣٤، وارد ناظر قسم النجيلة، وثيقة ١٣٦، غاية ربيع الأول ١٢٨٥هـ / ٢٢ يوليو ١٨٦٨ م، ص ١٢٦؛ هوايت: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٣-٦٤.

(٢) عمر طوسون: المرجع السابق، ص ٧٧.

(٣) رءوف حبيب: المرجع السابق، ص ٨٩-٩٠.

(٤) إلياس الأيوبي: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٣٣.

(٥) مجلة الكرازة: السنة ٢٣، العددان ١٩، ٢٠، ١١ بشنس ١٧١١ش / ١٩ مايو ١٩٩٥، ص ١٢-١٣؛ نفسه

السنة ٢٨، العددان ١، ٢، ٢٨ كيهك ١٧١٦ش / ٧ يناير ٢٠٠٠ م، ص ١٣، ١٢.

(٦) الكتاب المقدس: سفر ملاخي، الإصحاح ٣، آية ١٠.

(٧) محمد عفيفي: الأقباط، المرجع السابق، ص ٢٥٦.

والشعير والعسل الأسود، حيث وصف الرحالة روبرت هنتجتون أن حياة الرهبان كانت بسيطة وشحيحة وهزيلة وذكر قائلاً: ”في هذه الأديرة يعيش الرهبان مثلما كانوا يعيشون بالكاد حياة الكفاف ويكتفون بالعدس والبقول والخبز الذي يلتمسونه من الخارج“^(١). وهذا ما أكدته بعض المصادر حيث ذكرت قائلاً: ”إن المعلم إبراهيم الجوهري كان يتصف بكرمه وعطاياه السخية للأديرة والكنائس الفقراء، فقد أحضر ذات مرة للدير خمسين إردباً من الترمس، ووضعت في أسفل الحصن وما زال بعض قشور هذا الترمس باقية حتى الآن بالحصن“^(٢)، وذلك لأنه كان يعتبر طعام الرهبان عندما يلازمون الحصن“^(٣). كما روي القمص أرمانوس متى عام ١٧٧٩ م قائلاً: ”في بعض الأيام كانت تتأخر القافلة المحملة بالمؤن الخاصة بدير الأنبا بيشوي عدة أسابيع عن موعدها فكان الرهبان لا يجدون ولا حتى الخبز الجاف، ولكنهم كانوا يتشفعون بالقدّيس الأنبا بيشوي لنجدتهم. وفي عهد المعلم إبراهيم الجوهري كان الدير في إحتياج شديد فطلب الأنبا بطرس مطران جرجا من الجوهري إرسال بعض طلبات الدير فأرسلها وكانت تحتوي على العديد من التبرعات العينية وهي قنطارين فسيخ، وقنطارين زيت أسود، وقنطار جبن، وقنطار أرز، وقنطارين دخان، وقنطار زيت، وقنطار عسل، وربع قنطار بن يدق“^(٤).

وهناك منبع اقتصادي آخر وهو ما أحضره الراغبون في الرهبنة من مال قد جمعه من بيع أملاكهم وقدموه لرؤساء أديرة الوادي ل يبقى تحت تصرفهم تشبهاً بما فعله المسيحيون الأوائل في العهد الرسولي الذين باعوا أملاكهم وقدموا أثمانها للرسول ليكون كل شيء في حياتهم مشتركاً بينهم^(٥).

(١) هيو ج. ج. إيفلين هويت: المرجع السابق، ص ١٦٠-١٦١.

(٢) كاتب هذه السطور شاهد هذا الحصن وبما يحويه بدير السريان العامر في مطلع القرن الحادي والعشرين.

(٣) سمعان السرياني: المرجع السابق، ص ١٧.

(٤) تأليف أحد رهبان دير الأنبا بيشوي: قصة دير القديس العظيم الأنبا بيشوي بين الأمس واليوم، مراجعة وتقديم الأنبا صرابامون، مطبعة الأنبا رويس بالعباسية، القاهرة ١٩٩١ م، ص ٢٣٩-٢٣٩.

(٥) رءوف حبيب: المرجع السابق، ص ٩٠.

غير أنه بالنظر إلى كل الموارد المالية والعينية سالفة الذكر، كانت أوقاف الأديرة تعتبر من أهم الموارد المالية، وكلها كما لاحظنا عقارات، وكانت نسبة كبيرة منها على دير السريان بوادي النطرون، وما يهمنها هو دور الوقف كمورد مالي لأديرة الوادي، وكان كل نظار أوقاف الأديرة من رهبانها ويعرف أحدهم باسم (وكيل الدير) وغالبًا ما كان يقيم بعزبة الدير ومن أولئك - على سبيل المثال - كان ناظر وقف دير السريان يقيم بعزبة باتريس^(١) وإن كان هناك أكثر من عزبة فيرسل مندوبًا عنه إليها مثلما فعل ناظر الوقف السالف حيث أرسل واحدًا إلى عزبة الدير بجريس بالمنوفية^(٢) وكان ناظر وقف دير الأنبا بيشوي يقيم في كفر داود^(٣) بينما ناظر وقف دير الأنبا مقار يقيم بعزبته باتريس^(٤) وكذلك ناظر وقف دير البراموس يقيم بعزبته بطوخ^(٥).

ومن أوقفوا عقارات على أديرة وادي النطرون كانت الشامية مريم عبد الله التي أوقفت أربعة منازل بالدرب الإبراهيمي بحارة النصرى بالأزبكية بالقاهرة، لصالح دير السيدة العذراء السريان ولفقراء الأقباط^(٦) كما أوقف غبريال عوض الشماع مساحة ٢١ قيراطًا وثلاثًا مقامًا عليها طاحونة فارسي كاملة العدة وصالحة للطحن بحارة النصرى بالأزبكية بالقاهرة، على نفسه، ومن بعده زوجته وبنيتها نورة وسيدة وما يستجد من الأولاد ذكورًا أو إناثًا، ثم على ذريتهم، ومن بعدهم على دير السريان وفقراء النصرى^(٧).

وحرصًا على عدم تدخل الدولة في مصادرة أوقاف أديرة وادي النطرون لجأ نظارها إلى كتابة الأوقاف بيعًا وشراءً بأسمائهم، ومن ذلك أن القمص عبد الملاك بقطر السرياني اشترى

(١) وثائق دير السريان: وثيقة ٤٨٣، ١٩ إبريل ١٨٩٥ م.

(٢) معية سنوية عربي: دفتر ١٨٨٤، أوامر، أمر كريم إلى روضة البحرين، وثيقة ٧٦، ٢٧ شوال ١٢٧٢ هـ/ أول يوليو ١٨٥٦ م، ص ١٨٨؛ جريدة وطني، عدد ١٨٥٣، ٢٤ صفر ١٨١٤ هـ/ ٢٩ يونية ١٩٩٧.

(٣) محكمة البحيرة: س ١١٦، م ١٠٣، ٢ ربيع أول ١٢٨٤ هـ/ ٤ يوليو ١٨٦٧، ص ١١٦.

(٤) وثائق دير السريان: وثيقة رقم ٦٠٧، غاية ذي الحجة ١٢٩١ هـ/ ٦ فبراير ١٨٧٥ م.

(٥) نفسه: وثيقة ٦٥٢، ٢٥ رجب ١٢٩٣ هـ/ ١٤ أغسطس ١٨٧٦ م.

(٦) نفسه: وثيقة رقم ٢١٣١، ١٠ رجب ١٢٢١ هـ/ ٢٣ سبتمبر ١٨٠٦ م.

(٧) نفسه: وثيقة رقم ٢١٥، ١٠ صفر ١٢٣٧ هـ/ ٦ نوفمبر ١٨٢١ م.

منزلاً بدرب الجنيينة بحارة النصارى بالأزبكية من بئعه يوسف سعد الجواهرجي مقابل مبلغ ٩٧٥ قرشاً رومياً^(١) ومن مظاهر استثمار جهة الوقف شراء عقارات ببال الوقف من خلال الناظر، فعلى سبيل المثال اشترى القس قلته بطرس السرياني منزلاً بدرب الجنيينة بالأزبكية بمبلغ ٢٠٠٠ قرش^(٢).

ولم تقتصر أوقاف أديرة وادي النظرون على العقارات فحسب؛ فقد وجدنا من يوقفون أطياناً، مثلما أوقف جاب الله صليب الباشكاتب بمديرية البحيرة ١٥ فداناً من الأراضي الخراجية بنفس الناحية لصالح كنيسة دمنهور وأديرة وادي النظرون وللفقراء والمساكين من الأقباط^(٣) كما أوقف المعلم أنطون المعروف بأبي طاقة ١٣ فداناً من الأراضي العشورية بناحية قراقص^(٤) لدير البراموس ولفقراء النصارى^(٥).

وهناك من قاموا بوقف العقارات والمحلات والأراضي وقدموا الهبات والتبرعات العينية ورمموا الكنائس والأديرة، نذكر منهم على سبيل المثال: المعلم إبراهيم الجوهري المتنيح في ٣١ مايو ١٧٩٥م الذي يشهد له التاريخ على محبته في تعمير الكنائس والأديرة وإصلاح وترميم وتشيد بعض مباني الخدمات بشتى كنائس وأديرة مصر من شمالها حتى جنوبها، عن طريق علاقته المتواصلة بالحكام المسلمين لطبيعة عمله، كما أوقف الأملاك من أراضي وعقارات ومحلات وأموال عليها حتى بلغ ما أوقفه نحو ٢٣٨ وقفية. ولقد قدم خدمات جليلة لأديرة وادي النظرون نذكر منها أنه شيد سور وقصر وكنيسة في دير البراموس على اسم الأنبا أبللو والأنبا أبيب هدمت سنة ١٨٨١م، وفي دير الأنبا بشوى رمم كنيسة الملاك ميخائيل عام

(١) نفسه: وثيقة رقم ٢١٣٨، ٩ جماد الآخر ١٢٤٨هـ / ٣ نوفمبر ١٨٣٢م.

(٢) نفسه: وثيقة رقم ٢١٠٨، ٨ ذو الحجة ١٢٢٥هـ / ٤ يناير ١٨١١م.

(٣) محكمة البحيرة: س ١١٤، م ١٢، ١٨ جمادى الآخرة ١٢٨٣هـ / ٢٨ أكتوبر ١٨٦٦م، ص ١٠١-١٠٢؛ أنظر ملحق رقم ١١.

(٤) قراقص: قرية قديمة، وردت في قوانين ابن مماتي وفي تحفة الإرشاد، وهي الآن تابعة لمركز دمنهور بمديرية البحيرة، لمزيد من التفصيل انظر: محمد رمزي: المرجع السابق، ق ٢، ج ٢، ص ٢٨٩.

(٥) محكمة البحيرة: س ٢٣، م ٣٢٧، أواخر شعبان ١٢١٨هـ / ٣ ديسمبر ١٨٠٣م، ص ١٨٠.

(١٤٩٨ ش / ١٧٨٢ م)، وبنى سورًا وقصرًا وطافوسًا (مقبرة للرهبان)، ويوجد مخطوط بدير السريان باللغة القبطية عن تكريس الكنائس، يؤكد على أن عمارة الأديرة بمعرفة الجوهرى (١٤٩٨ ش / ١٧٨٢ م) ^(١).

وقد تعددت أساليب الانتفاع بالأوقاف، فنجدها تؤجر عقاراتها وهو أكثر الأساليب التي لجأت إليها من أجل استغلال موقوفاتها؛ لتحصيل أكبر الموارد المالية، فنجد القمص تاو وروس وكيل أوقاف دير السريان والأنبا بشوي يؤجران عقارًا بدرب البغدادى بالأزبكية تابعًا لوقف الدير بإيجار قدره ١٨٥ قرشًا شهريًا ^(٢) كما أجر لقسدي حبشي عقارًا بشارع كلوت بك لمدة عام بإيجار قدره ١٨٣٦ قرشًا على أن يسدد المبلغ مقدمًا ^(٣) كما نجد القمص مكسيموس وكيل أوقاف دير السريان يؤجر دكانًا بشارع كلوت بك لعبد الملك مرزوق مدى الحياة بإيجار قدره ١٠٠ قرش شهريًا ^(٤).

وشهدت أوقاف أديرة وادي النظرون الاستبدال؛ حيث استبدل القس قلته بطرس السرياني طاحونًا من أحد الواقفين مقابل ٩٥ ريال حجر ^(٥) كما استبدل القمص مكسيموس السرياني بناء على رغبة البابا كيرلس الخامس البطريك رقم (١١٢)، قطعة أرض مساحتها سبعة فدادين

(١) إيريس حبيب المصرى: السنكسار الأمين، المرجع السابق، ص ٢٤٤-٢٤٥، ماجد إسرائيل: مقال بعنوان «الدار البطريكية ١٢٠٥٦-٢٠١٢م»، جريدة الشروق، بتاريخ ٢ نوفمبر ٢٠١٢م، أيسوذورس، الأنبا، المرجع السابق، ص ٣٩٠، ثيودور هول باترك، المرجع السابق، ص ١١٧؛ توفيق إسكاروس، المرجع السابق، ص ٢١٥، دير السريان، مخطوطة رق ٢٤٩، ميامر، ١٥٨١ ش / ١٨٦٥م؛ شواهد القبور، لوحة رخامة لمقبرة المعلم إبراهيم الجوهرى، بمنطقة مصر القديمة، توجد على المقبرة تاريخ نيافته ١٥١١ ش / ١٧٩٥م، عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار والأخبار، المرجع السابق، حوادث ذو القعدة ١٢٠٩هـ / ١٧٩٥م، ص ٢٦٢.

(٢) وثائق دير السريان: وثيقة رقم ٤٨٨، ١٧ محرم ١٢٩٣، ٣ فبراير ١٨٧٦م.

(٣) نفسه: وثيقة رقم ٤٤٥، ١٣ صفر ١٢٩١هـ / ٣١ مارس ١٨٧٤م.

(٤) نفسه: وثيقة رقم ٦١٥، يناير ١٩٠٢م.

(٥) نفسه: وثيقة رقم ٢٠٩٩، ١٢ صفر ١٢٠٣هـ / ١٢ نوفمبر ١٧٨٨م؛ انظر: ملحق رقم (١٩)، ص

وستة عشر قيراطاً بناحية أتريس مع عمر باشا طوسون حتى تصبح أطيانه قطعة واحدة مقابل نفس المساحة ودون مقابل مادي^(١). والجدير بالذكر حرص نظار أوقاف أديرة وادي النظرون على صيانة أوقافهم، فقد بلغت تكلفة صيانة أحد العقارات الموقوفة لدير الأنبا مقار ٢٩٢ قرشاً^(٢) وقد وجدنا الصيانة كبيرة في بعض الأحيان وصلت ١٧٧٩٢ قرشاً على عقار بدرج الجينية بالأزبكية وفقاً لدير السريان، فربما رجَّح ذلك إلى اختلاف المساحة وعدد الأدوار ونوع الصيانة ذاتها^(٣).

وتعددت أوجه نفقات الأديرة، فكان منها ما ينفق على الرهبان من أجل توفير غذائهم وملابسهم، وعلى قصر الضيافة، والمضيافة العامة لإطعام المترددين على الدير، وما يقدم للفقراء والمساكين، وما يتم دفعه لغير القادرين من الأقباط للجزية حتى تم إلغاؤها في يناير ١٨٥٤م^(٤).

وهناك ما ينفق على أعمال الصيانة مثل ترميم أسوار الدير أو كنائسه أو أيقوناته، أو التوسع في تشييد قلالي جديدة لاستيعاب الرهبان الجدد، وكذلك إمداد الدير بطلمبات بخارية لتوفير المياه، بالإضافة إلى ما ينفق على صيانة الأوقاف وشراء الأراضي واستصلاحها وشراء العقارات عن سعة^(٥). كذلك كان هناك ما يرسل إلى البطريك للمساهمة في نفقات البطريكية، فضلاً عما تسهم بها الأديرة في مرتبات المدرسة اللاهوتية والجمعيات الخيرية^(٦).

(١) نفسه: وثيقة رقم ١٢١٤، ٥ نوفمبر ١٩٠٤م.

(٢) نفسه: وثيقة رقم ١٢٨٦، ٨ شوال ١٢٩٣هـ/ ٢٧ أكتوبر ١٨٧٦م.

(٣) نفسه: وثيقة ٧٤٠، ٤ ربيع الآخر ١٢٩٩هـ/ ٢٣ فبراير ١٨٨٢م.

(٤) مديرية البحيرة: س ٢٧٤، صادر فروع البحيرة إلى سايرة، وثيقة ٣٣٤٧، ٢٩ شعبان ١٢٦٧هـ/ ١١ يوليو ١٨٥٠م، ص ١٨٤٦.

(٥) وثائق دير السريان: وثيقة ٦٥٢، ٢٥ رجب ١٢٩٣هـ/ ١٦ أغسطس ١٨٧٦م.

(٦) نفسه: وثيقة ٧٣٨، ٢١ مايو ١٨٩٤م؛ ميخائيل شاروويم، الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث، ج ٤، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٠٠، ص ١٣١.

الدولة وأديرة وادي النظرون:

١ - مشكلة دير السريان:

تعتبر مشكلة دير السريان بوادي النظرون من المشكلات القديمة، وتعود إلى أوائل القرن السادس عشر وعلى وجه التحديد عام ١٥٦٢ م. ومنذ ذلك التاريخ حتى أواخر القرن التاسع عشر والمشكلة تمر بمتغيرات تجعلها تظهر في الأفق السياسي أو تمر بمرحلة خمود ينتظر من يثيرها مرة أخرى، فيعود لها عنفوانها القوي، لدرجة أنها تبدو لأول وهلة مشكلة لا حل لها^(١).

فمنذ أن نشأ دير السريان وهو يعرف باسم "دير والدة الإله"، أي من أديرة الشيؤطوكس (السيدة العذراء)، حتى وفد إليه الرهبان السريان من دير الأنبا يحنس كما القديم^(٢) على إثر خرابه ما بين عام (١٤١٣ - ١٤٣٠ م)، حتى وصل عددهم في سنة ١٥١٦ م، إلى ثمانية عشر راهبًا من المجموع الكلي للدير البالغ ثلاثة وأربعين راهبًا والباقون منهم مصريون، لدرجة أنه أصبح يعرف باسم "دير السريان" مما دفع الرهبان السريان إلى الادعاء بملكيتهم للدير^(٣).

وبعد أن بدأ نجم الرهبان السريان يتردد في الأفول، لجأ الرهبان المصريون في الرد عليهم ببناء كنيسة القديس يوحنا كما في دير السريان ليتمكنوا من إقامة شعائرهم باللغة القبطية بعد سكناهم بين قوم يختلفون عنهم طقسًا ولغة، وربما أرادوا بمشروعهم هذا عملاً سياسياً؛ وهو أن يعطوا دير السريان طابعاً مصرياً، وربما بدأ الرهبان المصريون والسريان بعدها يتعايشون معا في سلام وسكينة متناسين ادعاءتهم فيما بينهم^(٤).

ولكن فترة الهدوء والسلام بين الرهبان المصريين والسريان لم تدم طويلاً، فسرعان ما تجددت المشكلة بينهما في عام ١٦٠٧ م بعد أن ادعى الرهبان السريان ملكيتهم للدير مصدقين

(١) إيفيلين هويت: المرجع السابق، ج٣، ص ١٥٢-١٥٣.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: مرتيروس السرياني، المرجع السابق، ص ٨٥-٨٦.

(٣) عبد المسيح المسعودي: المرجع السابق، ص ٦٩-٧٠.

(٤) صموئيل السرياني: المرجع السابق، ص ١٥٣.

مخطوطة يرجع تاريخها إلى عام ١٥٦٢ م مكتوبة باللغة السريانية والقبطية تؤكد ملكيتهم للدير منذ منتصف القرن السادس الميلادي، بناء على الصفقة التي قام بها القديس ماروتا حبيب التاجر التكريتي بشراء الدير من بطريك^(١) الإسكندرية بمبلغ قدره اثنا عشر ألف دينار^(٢).

وتجنبًا لحدوث الخلافات فيما بينهما اتفق الطرفان على إقامة الجدار العازل بينهما بالدير، حيث يتخذ الرهبان المصريون الجانب الشرقي ويصلون بكنيسة يوحنا كاما، بينما يتركون لإخوانهم السريان الجانب الغربي بما فيه الحصن والكنائس، ويتوسط الجدار باب صغير لاستعماله عند الحاجة إلا أن السلام لم يكن مستقرًا بينهما، فكانوا يتنازعون على أمور تافهة من حين لآخر، فكان من ذلك في سنة ١٦٣٤ م تجديد الرهبان السريان لأقوالهم وادعاءاتهم بحقهم في ملكية الدير^(٣).

وردًا على ادعاءات الرهبان السريان بملكيتهم للدير قام الرهبان المصريون بخلع ربيته الدير (أمين الدير) السرياني وتعيين مصري بدلًا منه هو أبو الفرج البراماي نسبة إلى بارما أو برما وهي مدينة بالدلتا، بناء على القرار الصادر في سنة ١٦٣٦ م من البابا متاؤس الثالث البطريرك رقم (١٠٠) (١٦٣١-١٦٤٦ م)^(٤) وبتأييد المجمع البطريركي والحكومة المصرية، ومما يعني بكل تأكيد انتهاء السيادة السورية بالدير، وأن إدارته أصبحت مصرية خالصة^(٥).

(١) المخطوطة لم تذكر اسم البطريرك الذي بائع الدير حسب ادعاء الرهبان السريان، ونحن نعلم على ضوء الأدلة التاريخية أن الذين جلسوا على كرسي المرقسية في أواسط ذات القرن كانوا ثلاثة هم ثيودوس (٥٣٦-٥٦٧ م) وبطرس الرابع (٥٦٧-٥٦٩ م)، وداميانوس (٥٦٩-٦٠٥) الذي كان سريانيًا، ومن هؤلاء الباباوات الذي تنازل عن دير السيدة العذراء والدة الإله؟ فهل فعلها الأخير حبًا في قومه؟ أو أحد اللذين تقدماه؟ رغبة في المال: انظر أيسوذورس، المرجع السابق، ص ٤٢٨؛ صموئيل السرياني، المرجع السابق، ص ١٤٥.

- (٢) إيفيلين هوايت: المرجع السابق، ج ٣، ص ١٥٣.
- (٣) صموئيل السرياني: المرجع السابق، ص ١٥٢-١٥٣.
- (٤) دواود مرقس حناوي: المرجع السابق، ص ٥٥٣.
- (٥) إيفيلين هوايت: المرجع السابق، ج ٣، ص ١٥٣-١٥٤.

ومنذ منتصف القرن السابع عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر، استمر دير السريان في تأدية رسالته في هدوء وسلام، حتى تجددت مشكلته عندما ترهب في دير البراموس شاب سرياني يقال له ناعوم الحمصي باسم الراهب أفرام البراموسي، وسرعان ما نال حظوة لدى البابا كيرلس الخامس البطريك رقم (١١٢)(١٨٧٤-١٩٢٧م)^(١) فرشحه أكثر من مرة لرتبة الأسقفية فكان تارة يعتذر وطورًا يختفي، وربما يرجع ذلك إلى زهده ونسكه أو نبوغه واهتمامه بالبحث والدراسة^(٢).

وفي ١١ يوليو سنة ١٨٩٧م وبضغط من البابا كيرلس الخامس وافق أفرام على رسامته أسقفًا لدير البراموس ودعى بالأبنا إيسيدورس^(٣) ولكنه لم يمكث في منصبه أكثر من ثلاثة شهور لاختلافه مع الأبنا يوانس مطران البحيرة ووكيل الكرازة المرقسية وقتئذ^(٤) الذي اتهمه بسعيه وراء المناصب في أن يكون مطرانًا على أديرة وادي النطرون مخالفًا قوانين الرهبنة، فحكم عليه المجمع المقدس بعزله وتجريده من رتبته، وفشلت المحاولات في تسوية النزاع بين الطرفين، فلما ضاقت السبل في وجه الأسقف المعزول رفع مظلمته إلى البطريك الأنطاكي، فحله من حرمة وقبله برتبته الأسقفية وغير اسمه إلى (كيرلس إيسيدوردس أفندي) وعينه نائبًا بطريكًا له في مصر والإسكندرية.

وردًا على موقف مطران البحيرة وأعضاء المجمع المقدس بتجريده وعد الأسقف رئيسه الجديد باسترداد دير السريان بكافة أملاكه من الكنيسة القبطية المصرية إلى كنيسة السريان الإنطاكية، ورفع في سبيل ذلك مذكرة إلى رجال الحكومتين المصرية والعثمانية، أثبت فيها ملكية الدير للكنيسة الإنطاكية السورية وقد رأت الحكومة العثمانية أن تأخذ بوجهة نظر الشاكي، فأوعزت إلى الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٩٢-١٩١٤م) وكان يومئذ في الأستانة بأن يراجع مع حكومته هذه القضية على ضوء البيانات التي ذكرها الأسقف^(٥) وتصادف أن قدم

(١) وثائق دير السريان: وثيقة رقم ٦٠٤، ٢١ طوبة ١٦١١ ش/ ١٨٩٥م.

(٢) مجلة الكرازة: السنة ٢٦، العددان ٣، ٤، ٨ طوبة ١٧١٤ ش/ ١٩٩٨م، ص ١١.

(٣) أحمد شفيق باشا: المرجع السابق، ص ٤٠.

(٤) دير السريان: مذكرة بشأن قوانين الرهبنة منذ نشأتها حتى سنة ١٩٢٨، د. ص

(٥) صموئيل السرياني: المرجع السابق، ص ١٦١.

على دار الخلافة العثمانية بطرس باشا غالي رئيس الوزراء ليعرض على الخديوي بعض المسائل المتعلقة بسياسة الدولة^(١) فلما فاتح عباس باشا كبير وزرائه في هذا الأمر استنكر رئيس الحكومة مطالب الأستقف، فطلب منه الخديوي الدفاع عن هذه القضية.

وفي سبيل ذلك أعد رئيس الوزراء مذكرة للدفاع أمام حكومة الدولة العثمانية أقنعهم بأحقية المصريين لدير والدة الإله الشهير بالسريان، وقال بطرس باشا (١٨٤٦ - ٢٠ فبراير ١٩١٠) في دفاعه: "إذا كانت تسميته بالسريان توجب تسليمه لإيسيدوروس السرياني إذا فليطالبنا الروم والأترک والأكراد والأرمن والمغاربة واليهود والفرنسيون بأحياء وشوارع في القاهرة تحمل أسماءهم في لافتات رسمية منذ زمن بعيد!!" فاستجابت الحكومة العثمانية لدفاعه وفشلت محاولات السريان في إثبات ادعائهم في ملكية الدير^(٢).

وحرصاً على عدم إثارة قضية دير السريان مرة أخرى طلب الخديوي عباس حلمي الثاني من رئيس وزرائه بطرس غالي إبلاغ رجال البطيركية بإبراز الوثائق والمستندات التي تؤكد ملكيتهم لدير السريان، ومن أجل ذلك شكلت لجنة برئاسة القمص عبد المسيح المسعودي البراموسي ومجموعة من الآباء الرهبان الذين يجيدون اللغات السريانية واليونانية والقبطية والإثيوبية لتولي هذا الأمر، وبعد أن انتهت اللجنة من عملها سلمت ما تم جمعه للبابا كيرلس الخامس ليتولى حفظها لإخراجها عند الضرورة^(٣).

ولما رأى الأنبا إيسودوروس أن قضيته قد رفضت شكلاً وموضوعاً، رجع إلى الكنيسة القبطية بعد أن سمح له البابا يوانس التاسع عشر البطيرك رقم (١١٣) (١٩٢٨-١٩٤٢م)^(٤) بتأدية الشعائر وبعد ستة شهور تنيح الأنبا إيسودوروس في يناير ١٩٤٢م وبوفاته تكون قد انتهت آخر مزاعم الكنيسة الإنطاكية في المطالبة بأحقيتها في ملكية دير السريان^(٥).

(١) عباس حلمي الثاني: المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(٢) صموئيل السرياني: المرجع السابق، ص ١٦١.

(٣) نفسه: ص ١٦٢.

(٤) إيسوروس: المرجع السابق، ص ٤٣١.

(٥) مجلة الكرازة: السنة ٢٦، ٨ طوبة ١٧١٤ ش / ١٦ يناير ١٩٩٨، ص ١١.

٢- أديرة وادي النظرون وحرمة التبشير الأجنبي:

تعتبر مصر من أكبر الولايات العثمانية التي تأثرت بالامتيازات الأجنبية^(١) حيث أخذت أنظار الأجانب تتجه إليها مع اتجاه محمد علي لهم للنهوض بالقطر المصري في كافة المجالات، ومن ثم بدأت البلاد تشهد وفود الأجانب إليها في ظل سياسة الباشا؛ التي اتسمت بالتسامح الديني واستتباب الأمن العام^(٢).

وبدأت مصر ترحب بالأجانب الذين ينزحون إليها، يحملون معهم كثيرا من عناصر النشاط الاقتصادي، ونزح معهم نشاط لا يقل خطورة عنه هو النشاط الديني، ففتحت الإرساليات الدينية المدارس وقام التعليم الأجنبي في مصر مستظلاً بالامتيازات، غير حافل بالدولة ولا خاضع لسلطات ولا ملتفت إلى خاصة الشعب لا يعنيه إلا نشر ثقافته ومذهب البلاد التي جاء منها^(٣).

كما كانت الظروف مهية لوفود الإرساليات الدينية - الكاثوليكية والبروتستانتية إلى مصر والتبشير بها خلال فترة الدراسة، فقد سمح حكام البلاد لهذه الهيئات بإنشاء المدارس ومنحهم أموالاً وهبات وأراضي^(٤) لإقامة المشروعات الخيرية^(٥) مع رغبة هذه الإرساليات في تحويل أقباط مصر إلى الكاثوليكية أو البروتستانتية، وخاصة بعد أن أصدر السلطان العثماني محمود الثاني فرماناً في ٢ ربيع الأول ١٢٥٣هـ / ٦ يوليو ١٨٣٧م بالسماح لطوائف النصارى في مصر باعتناق مذاهب بعضهم البعض وإقامة شعائرهم وطقوسهم دون تدخل الحكام^(٦).

(١) لمزيد من التفصيل عن الامتيازات الأجنبية: انظر الهلال، السنة الأولى، عدد ٢، ١٠ ربيع الأول ١٣١٠هـ / أول أكتوبر ١٨٩٢م.

(٢) الجريدة: العدد ١٠٠٩، ٧ يوليو ١٩١٠، نبيل عبد الحميد، النشاط التبشيري الأميركي في البلاد العربية حتى عام ١٩٢٣م، المجلة التاريخية المصرية، مجلد رقم ٢٧، القاهرة ١٩٨١، ص ٢٥٥.

(٣) جرجس سلامة: تاريخ التعليم الأجنبي في مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، نشر الرسائل الجامعية، القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٦.

(٤) معية سنية عربي: دفتر رقم ١٨٩٣، أوامر رقم ٤، غرة ربيع الأول ١٢٨٤هـ / ٣ يوليو ١٨٦٧م، ص ٧.

(٥) نفسه: دفتر ١٩٠٢، أوامر، أمر رقم ٣، ١٢ محرم ١٢٨٠هـ / ٢٩ يونية ١٨٦٣م، ص ٥٢.

(٦) محافظ الأبحاث: محفظة ٣٧، فرمان رقم ٩٠، من السلطان محمود إلى محمد علي باشا، ٢ ربيع الآخر ١٢٥٣هـ / ٦ يوليو ١٨٣٧م.

وثمة عامل آخر أتاح فرصًا للتبشير الكاثوليكي والبروتستانتية، حيث اتجه نشاط المبشرين إلى العمل على احتواء المؤسسة الدينية الوطنية للقبط وتفكيكها- وهي كنيستهم الأرثوذكسية- بما يؤدي إلى شردمتهم وتوزيعهم على مذاهب أخرى، وتولت القيادة في هذا المجال الكنيسة المشيخية المتحدة (البروتستانتية) بالولايات المتحدة الأميركية، وقادت أشد الهجمات المخططة والمنظمة وأعنفها تأثيرًا على الكنيسة القبطية^(١).

وبدأت البلاد تعرف الكتلحة التي لم يكن لها وجود قبل القرن الخامس الميلادي، فمنذ تأسيس الكنيسة المسيحية الأولى في القرن الأول الميلادي حتى المجمع المسكوني الرابع في خلقدونية عام (٤٥١م) كانت الكنيسة واحدة لا تعرف الطوائف، ولكن بعد هذا التاريخ ظهر أول انشقاق في الجسم الكنسي^(٢) وبدأ اعتناق الأقباط الكتلحة في القرن السابع عشر الميلادي، وقبل ذلك كان الكاثوليك في مصر من الأجانب، وقد كان تحول الأرثوذكس إلى المذهب الكاثوليكي في غاية الصعوبة^(٣) وربما رجع ذلك إلى التشابه الكبير فيما بينهما لأن الكاثوليك حملوا معهم تيار الإطهار الرهباني وهو تيار نابع أساسًا من مصر وليس جديدًا عليها، ولكن الأمر يختلف بالنسبة للبروتستانتية التي انشقت عن الكاثوليكية في القرن السادس عشر الميلادي، فشقت طريقها بسرعة في مصر لأنهم جاؤوا بتيار الإطهار العلماني (غير الرهباني) وبشكل مؤسسي جديد، وممارسات عبادية مختلفة فالبروتستانتية، كانت حركة تجديد وليست تطويرًا جزئيًا^(٤) ويظهر ذلك في إحصاء سنة ١٩٠٧م حيث بلغ عدد الأقباط الكاثوليك في مصر ١٤٥٦٦، بينما بلغ عدد الإنجيليين أو البرتستانت ٢٤٧١٠^(٥).

-
- (١) أبو سيف يوسف: الأقباط والقومية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٦، ص ١١٤.
 - (٢) لمزيد من التفصيل انظر: رفيق حبيب ومحمد عفيفي، تاريخ الكنيسة المصرية، الدار العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٤، ص ٨٠.
 - (٣) آمال أسعد توفيق: الأقباط في عهد الاحتلال (١٨٨٢-١٩١٤) رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم تاريخ، جامعة عين شمس، سنة ١٩٨٩، ص ١٦٧.
 - (٤) رفيق حبيب ومحمد عفيفي: المرجع السابق، ص ٩٢-٩٣.
 - (٥) رياض سوريال: المرجع السابق، ص ١٣٢.

وكانت أولى الإرساليات الكاثوليكية إلى مصر في أوائل القرن الثامن عشر، تذهب أدراج الرياح حيث فشل المبشرون في زحزة أي قبطي عن التمسك بمذهبه الأرثوذكسي، ولكنهم نجحوا في ضم كثيرين من المقيمين بمصر من الأرمن^(١) والسريانيين واليونانيين إلى مذهبهم وأصبح لهم في سنة ١٧٣١م عدة مراكز في الصعيد في أسيوط وأبو تيج وأخميم وجرجا والأقصر، وبناء على تعليمات البابا كليمان الثاني بدأوا في إرسال أولادهم كبعثات إلى روما^(٢) والجدير بالذكر أن الجزويت تقدموا بطلب إلى الملك لويس الرابع عشر؛ لإقامة مدرسة للغات في مارسيليا على غرار مدرسة بيرا، وذلك لتعليم الأطفال اليونانية والأرمنية والسريانية، ليكونوا مؤهلين للذهاب إلى الشرق لنشر النفوذ الفرنسي، ولذلك قرر لويس الرابع عشر إحضار اثني عشر طفلاً من الأرمن واليونانيين والأقباط لتلقي تعليمهم في كلية لي جران ليكونوا نواة للبعثات التنصيرية، ويعملوا على خدمة القناصل والتجار في مواني الشرق^(٣).

وقد ازدهرت حركة الكتلحة بين الأقباط في مصر خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، لدرجة أنه تحول اثنان من المطارنة الأرثوذكس إلى الكاثوليكية أولهما الأنبا أثناسيوس أسقف أورشليم ١٧٣٩م، وسرعان ما عينه بابا روما نائباً رسولياً له في مصر ١٧٤١م، ولكنه عاد إلى المذهب الأرثوذكسي ١٧٤٤م، أما الثاني فهو الأنبا أنطونيوس فلافل أسقف جرجا فصدر قرار حرمانه من الكنيسة الأرثوذكسية وآزت الحكومة أقباط مصر فألقته في غياهب السجون حتى لاذ بالفرار إلى روما^(٤) كذلك ذكر يوسف السمعاني أمين مكتبة الفاتيكان الماروني أنه في أثناء وجوده في زيارة لدير البراموس أقنع رئيسه مكاريوس بقبول عقيدة الطبيعتين، ورحل معه إلى روما حيث أقامه البابا رئيساً على دير القديس إستفانوس للرهبان الأقباط والأحباش، وتنيح في عام ١٧٤٠م وهو يناهز ١٠٧ عاماً^(٥).

(١) لمزيد من التفصيل عن الأرمن انظر: جمال كمال محمود، الأرمن في مصر في العصر العثماني، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة القاهرة ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص ٢١٧.

(٢) آمال أسعد: المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٣) إلهام ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، المرجع السابق، ص

٢٩٥؛ جمال محمود، المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٤) رياض سوريال: المرجع السابق، ص ١٣٤.

(٥) صموئيل السرياني: المرجع السابق، ص ٨٣.

كما استمال الكاثوليك بالقوة شاب قبطي اسمه روفائيل الطوخي من أهالي جرجا وأرسلوه لدراسة اللاهوت في روما وبعد اتمام دراسته تم تعيينه أسقفًا على أرسينو، كما كلف بتأليف كتب قبطية تخص الطقوس بعد تنقيحها، وأيضًا استمالة أسقف جرجا القبطي إلى المذهب الكاثوليكي، ولهرطقته حرم من الكنيسة القبطية ففر هاربًا إلى روما وعاش فيها حتى مات عام ١٨٠٧م^(١)، وحدث في عهد ”يوانس السابع عشر“ البطريرك رقم (١٠٥)(١٧٢٧-١٧٤٥م) انقسام داخل بعض الأسر القبطية وخاصة الأسر التي نجح الكاثوليك في استمالة بعض أفرادها، بسبب التراكات والزواج فاشتكى كبار الكتاب الأقباط لمخدوميهم الأمراء لذلك عقد مجلس بحضورهم وحضور البطريرك وقسيس اللاتين بمحكمة مصر الشرعية، وبعد سماع الأقوال تقرر التصريح لبطريرك الأقباط الأرثوذكس بتنفيذ السلطة الدينية على أبناء أمته^(٢). ولكثرة المشكلات ما بين الأرثوذكس والكاثوليك وخاصة في صعيد مصر^(٣) عقدت معاهدة في يناير عام ١٧٩٤م ما بين طائفة الأقباط الأرثوذكس برئاسة البابا يوانس الثامن عشر البطريرك رقم (١٠٧)(١٧٦٩-١٧٩٦م) ومعه المعلم إبراهيم الجوهري وأخوه جرجس، وطائفة الكاثوليك برئاسة كيرلس رئيس عام رهبان الكاثوليك والمندوب البابوي لروما، ومعه قنصل النمسا كركور وشتي والأب اكليمنضس رئيس عام سابقًا. وكان الاتفاق ينص على ما يأتي:

١- المتزوجون من الفريقين لهم حرية اختيار الصلاة بأية كنيسة أرادوا قبطية كانت أو كاثوليكية.

٢- من الآن فصاعدًا لا ينبغي أن يتزوج الأقباط من الكاثوليك ولا الكاثوليك من الأقباط.

(١) منسى القمص، الشماس: تاريخ الكنيسة القبطية، الطبعة الأولى، مطبعة اليقظة القبطية، القاهرة ١٩٢٤م، ٦٢٤.

(٢) محكمة مصر الشرعية: مادة بدون رقم، بتاريخ غرة محرم ١١٥١هـ/ ٢١ إبريل ١٧٣٨م، دون صفحة، نقلًا عن منسى القمص، الشماس: المرجع السابق، ٦٢٥.

(٣) صعيد مصر: نقصد هنا مدينة جرجا وأخميم وفرشوط ونقاده، وجميعها جنوب مصر.

٣- لا يدخل قساوسة الكاثوليك بيوت الأرثوذكس ليكرزوا لهم، ولا القساوسة الأرثوذكس بيوت الكاثوليك.

٤- لا ينبغي إرغام أي أحد ليصلي بكنيسة معينة، بل لترك لكل واحد حق اختيار الكنيسة التي يجب الصلاة بها.

٥- لا يصح فيما بعد إذا حدث خلاف أن يرفع الأمر إلى رجال الحكومة بل إلى الرؤساء من الكنيستين وهم مقاصدة الممتدى^(١)

ويذكر أن الحملة الفرنسية (١٧٩٨-١٨٠١ م) واصلت التبشير بالكتلكة، وزاد عدد الذين تبعوها زيادة قليلة لأن عهدا كان قصيراً، وبعد جلائها وجّه البابا مرقس الثامن البطريرك (١٠٨) (١٧٩٦-١٨٠٩)^(٢). رسالة رعوية إلى طائفته ندد فيها بمظاهر تورط عدد من القبط في محاكاة الفرنسيين، فأخذت الرسالة عليهم أنهم تعلموا عادات الأمم الغربية ولازموا معاشره فاعلي الشر^(٣). وهذا ما أكده الجنرال أندريوسي الذي ذكر قائلاً: ” كان من دوافع الرحالة الزائرون لوادي النظرون إما بدافع الفضول العام أو كمبشرين أو بهدف الحصول على المخطوطات ”^(٤).

كما عادت حركة الكتلكة إلى الانتشار بين الأقباط في مصر خلال القرن التاسع عشر، بعد اعتماد محمد علي في مشروعاته على الفرنسيين فأفسح لهم المجال لوفود الإرساليات الفرنسية،

(١) محكمة مصر الشرعية: مادة بدون رقم، بتاريخ غرة محرم ١١٥١هـ / ٢١ إبريل ١٧٣٨م، دون صفحة، نقلاً عن منسي القمص، الشماس: المرجع السابق، ٦٢٧.

(٢) داود مرقس حناوي: المرجع السابق، ص ٥٧٥-٥٧٦.

(٣) إيريس حبيب المصري: المرجع السابق، ج ٤، ص ١٨٥-١٨٨؛ أبو سيف يوسف، المرجع السابق، ص ١٠١.

(٤) لمزيد من التفصيل انظر: اليق علماء الحملة الفرنسية، ج ٢، المرجع السابق، ص ٤١-٦٧.

فبرز المذهب الكاثوليكي في مصر، لدرجة أن اعتنقه كبير الأقباط وهو المعلم غالي^(١) وأفراد

(١) المعلم غالي (١٧٧٥-١٨٢٢م): هو ابن المعلم سرجيوس ابن المعلم فلثاؤس من وجهها أقباط مديرية قنا، وقد ولد في مدينة فرشوط عام ١٧٧٥. لما شب غالي التحق بخدمة محمد بك الألفي أحد أمراء المماليك، والي فرشوط، وفي هذا الوقت تعرف بمحمد علي، الذي كان قد قدم إلى مصر على رأس فرقة من الجند لمحاربة الفرنسيين، وكان الألفي يدفع رواتب محمد علي وجنده، فتوطدت الصداقة بينه وبين المعلم غالي، وبقي غالي كاتب في خدمة الألفي حتى توفي في عام ١٨٠٧، ثم استدعاه محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٨م) والي مصر عام (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م) وأسند إليه منصبًا كبيرًا هو رئيس كتبة بعد غضبه على المعلم جرجس الجوهري، الذي ورث منصب أخيه المعلم إبراهيم المنتيج عام ١٧٩٥م، وكان المعلم غالي يسهل لمحمد علي أمر تحصيل الضرائب، فكان جشع محمد علي في تحصيل الضرائب لا يقف عند حد، فكان دائمًا يطالبه بجمع الأموال، فكان يقسمها جمعها على المباشرين والكتبة وجمعها في أقرب وقت، وكان جمعها بسرعة سببًا في جلب الغدر عليه وعلى غيره، فإن الباشا بعد فترة وجيزة أمر بمحاصرة بيته، وبيت المعلم جرجس الطويل، وأخيه حنا، وفرنسيس أخيه، والمعلم فلثاؤس، واثنين آخرين وأخرجوهم من منازلهم بصورة منكرة وسمروا دورهم، وأخذوا دفاترهم وحسبوسهم، وبعد أيام أفرج عنهم على شرط أن يدفعوا له سبعة آلاف كيس فقاموا بدفعها. ولم تمض سبعة شهور حتى قبض عليهم ثانية وحسبهم في القلعة وختموا على دورهم، ثم عفا عنهم وأعاد المعلم غالي إلى منصبه، على شرط أن يدفعوا أربعة وعشرين ألف كيسًا. وتكرر حدوث ذلك، فكان يغضب عليه تارة ويعزله من منصبه ويرميه في السجن ويضربه مئآت الكراييج، ثم يعيده إلى منصبه بعد دفع مبلغ طائل. عندما أراد الباشا تنظيم الجهاز الإداري لمصر، لم يتردد في الإفراج عنه وإليه يرجع الفضل، في تقسيم البلاد إلى مديريات وأقسام، والأطيان إلى أحواض، وابتكر أشياء كثيرة وحسابات تحقق مقدارًا وفيرًا من المال، ولذلك يُنسب للمعلم غالي تأسيس مصلحة المساحة، كما كان له دوره في تشجيع صناعة الأسلحة محليًا. ومن أعماله الجليلة أيضًا اقتراحه على محمد علي حفر قناة بين بحر الروم وبحر العرب ولكنه لم ينفذ. ونتيجة لنجاحه الكبير قابله محمد علي بالرضا، وأثنى عليه ومن ثم اتخذها كاتما لسره وخصه مباشرة الأعمال الحسابية التي ابتكرها، فكانت يده فوق يد الجميع حتى حكام الأقاليم، واستمر في عمله حتى قتل على يد إبراهيم باشا الذي أطلق عليه رصاص مسدسه عليه في مدينة زفتى، أمام ابنه طوبيا في مايو ١٨٢٢م، وهكذا لقي المعلم غالي جزاء أمانته ووطنيته وخدمته، بعد أن أدى أجل الخدمات لمحمد علي ولإبراهيم باشا قاتله. وقد بقيت جثته ملقاة مدة يومين لا يجروا أحد على القيام بدفنها، حتى استأذن رزق أغا حاكم الشرقية في دفنها، فأقيمت الصلاة على المعلم غالي بكنيسة أبي سيفين بزفتى، ثم دفن بجوارها. أما الحياة الاجتماعية للمعلم غالي فقد كان متزوجًا من المدعوة «كتورة» أو «كاترينا»، وهي من أسرة الزير الشهيرة بأخميم، وهذه الأسرة ورد ذكرها كثيرًا بسجلات الآباء الفرنسيين سكان آنذاك، وقد أنجب منها ثلاثة أبناء هم باسيلوس ودوس وطوبيا، ويذكر التاريخ أن محمد علي استدعى باسيلوس نجل المعلم غالي وقال له: «هل أنت حزين لموت أبيك؟» فأجابه باسيلوس: «لم يمض أبي مادام مولاي الأمير حيًا». فأعجب به محمد علي وأسند إليه وظيفة رئيس المحاسبة في الحكومة المصرية وأنعم عليه برتبة «بك»، وهو أول من منحه هذه الرتبة من الأقباط، انظر: أنطونيوس الأنطوني، القمص، وطينة الكنيسة القبطية، المرجع السابق، ٣٢٧، أنطون فؤاد، الأب، المعلم غالي ودوره في الكنيسة الكاثوليكية، موقع الكنيسة الكاثوليكية في مصر. <http://catholic-eg.com>

أسرته بتوجيه من الباشا^(١) وبعد مصرع المعلم غالي في مايو ١٨٢٢ م عُين كبير محاسبة باسيلوس كبيراً لطائفة الكاثوليك، ولزيادة أعداد الطائفة عين بابا روما رسوليين نواباً عنه في مصر في ذات القرن^(٢).

على أية حال، بدأ هؤلاء النواب في نشر نشاطاتهم بعد أن اتخذوا من طهطا مركزاً لهم، واجتمعوا بالعديد من الأقباط وألقوا عليهم المواعظ الدينية التي تدعوهم إلى اعتناق الكثلكة، وانطلقوا من هذه القاعدة إلى مدن الوجه البحري متبعين نفس النهج لجذب آخرين إلى مذهبهم^(٣).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عمل هؤلاء النواب الرسوليون على إرساء دعائم الكثلكة بإنشاء العديد من المدارس والكنائس، فأنشئت المدرسة الأكليريكية للكاثوليك بالموسكي سنة ١٨٧٩ م، وفي سنة ١٨٨٩ م مدرسة العائلة المقدسة (الجزويت) بالفجالة بالقاهرة^(٤) وفي منطقة حلوان أسست مدرسة العائلة المقدسة بحلوان (بنين- بنات) عام ١٨٨٧ م، وكانت ضمن سلسلة المدارس الإرسالية التي انتشرت بمصر^(٥) وكانت أولى كنائس الطائفة بملوي بالمنيا، وأرمنت بقنا وناحية درنكة بأسسوط وفي سنة ١٨٩٥ م أنشئت بطيركية الأقباط الكاثوليك^(٦).

أما المذهب البروتستانتي فقد بدأ اعتناقه في مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فمنذ سنة ١٨٥٠ م وقبل أن تقوم أول كنيسة إنجيلية في مصر بثلاث عشرة سنة، نجحت

(١) محافظ الذوات: محفظة ١٣٢، من محمد علي باشا إلى رئيس معلمي الأقباط، وثيقة ١٢٩، ١٧ ذو القعدة ١٢٢٣ هـ / ٦ يناير ١٨٠٩ م.

(٢) رياض سوريال: المرجع السابق، ص ١٣٦.

(٣) الوطن: عدد ٧٨٤، ٢٧ نوفمبر ١٨٩٤ م.

(٤) رياض سوريال: المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٥) فريير ألدوينيتي: حلوان ١٨٨٧-١٩٨٧، ترجمة سالفاتورى كاليا، مطبعة السلام، القاهرة ١٩٨٨ م، ص ٧٤.

(٦) محافظ مجلس الوزراء: محفظة ٣/ج، داخلية، الطوائف والجاليات الأجنبية، تواريخ مختلفة تبدأ من يناير ١٨٧٣، حتى مايو ١٩٠٠ م.

الدبلوماسية الأمريكية بواسطة قنصلها بالقاهرة في استصدار فرمان من سلطان الدولة العثمانية باعتبار الإنجيليين طائفة قائمة بذاتها، وذلك قبل أن يعتنق أحد من الأقباط المذهب الإنجيلي^(١).

ولقد بدأ النشاط التبشيري البروتستانتي في مصر على يد توماس ماكاج وزميله جيمس بارنت^(٢) وجون هوج الذي اتخذ من أسيوط عام ١٨٦٥م قاعدة انطلاق وفقاً لخطة معدة سلفاً، نقطة البداية فيها اختراق مجتمع الأقباط، ببناء المدرسة لأنها المدخل الوحيد للمدينة، وانتشرت مدارس الإرساليات الأمريكية في المدن والقرى، وكان الإشراف على المدارس والتفتيش عليها يتم أمريكياً، أى للكنيسة الإنجيلية، وفي عام ١٨٩٦م، كانت هناك ١٦٨ مدرسة تابعة للإرسالية الأمريكية تضم ١١٠١٤ تلميذاً وتلميذة وتميزت عند إنشائها - بأغراضها التي كانت في مجملها دينية^(٣). وكان المبشرون الأمريكيون ينعون على الكنيسة القبطية الأرثوذكسية انحراف عقيدتها الطقسية عن جادة الدين القويم، وأنه ميؤس من إصلاحها روحياً^(٤) مما جعلها تدخل في صدام معها، ولا تزال حتى يومنا هذا^(٥).

أما فيما يتعلق بموقف أديرة وادي النطرون من حركة التبشير، فيرجع الفضل إلى رهبان هذه الأديرة في مساندة كنيستهم (الكنيسة القبطية) في الحفاظ على التراث الأرثوذكسي كما هو في مواجهة سطوة كنيسة روما (الكاثوليكية) ورغبتها في فرض المذهب الكاثوليكي على بقية الكنائس، لا سيما الكنائس الشرقية، وعلى رأسها كنيسة الإسكندرية^(٦).

(1) Watson, Andrew: The American Mission in Egypt, Cairo 1888, P.P. 771772-.

(٢) لينوار تشامبرز رايت: سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر (١٨٣٠-١٩١٤)، ترجمة فاطمة علم الدين عبد الواحد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧، ص ١٧٧.

(٣) أبو سيف يوسف: المرجع السابق، ص ١١٥؛ Watson, Andrew:: Op. Cit. P. 772.

(٤) لينوار تشامبرز رايت: المرجع السابق، ص ١٨٥؛ أبو سيف: المرجع السابق، ص ١١٥.

(٥) لمزيد من التفصيل انظر: رياض سوريال: المرجع السابق، ص ١٤٦؛ آمال أسعد: المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٦) محمد عفيفي: الكنيسة والأقباط والحملة الفرنسية، بحث منشور ضمن الدور الوطني للكنيسة المصرية عبر العصور، تحرير عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٢٤٧.

فمنذ أن بدأ المذهب الكاثوليكي يتسلل إلى مصر في القرن السابع عشر الميلادي، ورهبان أديرة وادي النطرون يدعون إلى التصدي لفكرة الكتلكة عن طريق تعبئة الكنيسة القبطية بمجموعة من المؤلفات والعظات للتعاليم الموروثة التي تعززها الكنيسة وتصوبها عند الحاجة كسهام حادة نحو صدور مقاوميتها^(١) وكدفعة لأبنائها للتمسك بتراث كنيستهم والحافظ على استقلالها الديني الذي تكبدت في سبيله دماء الشهداء الأقباط، ويرى هؤلاء أن التضحية بذلك الاستقلال تعني التنكر لهؤلاء الشهداء^(٢).

ولا نستطيع أن ننكر وجود فريق من رهبان وادي النطرون منذ أواخر القرن الثامن عشر، تخصصوا في التصدي بكتابتهم لحركة الكتلكة، فاشتهر من هؤلاء القمص بطرس السرياني الذي كتب منشورًا رعوياً، والقمص قلته السرياني الذي كتب مجموعة من العظات ونسخها للتمسك بتعاليم الكنيسة الأرثوذكسية، والقس عطية المقاري المتخصص في كتابة طقوس الكنيسة^(٣) بالإضافة إلى ما كتبه الأنبا يوساب المعروف بابن الأبح أسقف جرجا وأخميم، في كتابه ”حديث موجه إلى القبط الذي تركوا كنيستهم لاتباع كنيسة الفرنجة“ وكان لهذه الكتابات أثرها في وقف حركة الكتلكة خلال ذات القرن^(٤).

على الرغم من تأييد محمد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٨) لكتلكة الأقباط في مصر إرضاء للفرنسيين المتآمرين على الكنيسة القبطية، ولكن ما أصدق القول: ”دولة الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة“^(٥) فإن رهبان وادي النطرون قبلوا التحدي بصلواتهم وأصوامهم وكتاباتهم، وتأييدهم حظي البابا مرقس الثامن رقم (١٠٨) في زيارته الرعوية وكتابته عن قوانين وأنظمة الكنيسة القبطية، مما ساهم - إلى حد ما- في وقف الكتلكة^(٦).

(١) مجلة الكرازة: السنة ٢٢، العددان ٣١، ٣٢، ١٣، مسرى ١٧١٠ ش/ ١٩ أغسطس ١٩٩٤، ص ١٥.

(٢) محمد عفيفي: الكنيسة والأقباط والحملة الفرنسية، المرجع السابق، ص ٢٤٨.

(٣) صموئيل السرياني: المرجع السابق، ص ١١٢، ١٦٥، ١٧٣.

(٤) إيريس حبيب: المرجع السابق، ج ٤، ص ١٤٤-١٤٩.

(٥) نفسه: ص ٢٤٧.

(٦) داود مرقس حناوي: المرجع السابق، ص ٥٧٥-٥٧٦.

كما تصدى رهبان وادي النطرون لدهاء الإنجليز عندما سعوا لافتتاح مدرسة سنة ١٨٤٠ م أمام الكنيسة المرقسية بكلوت بك بالقاهرة لتدريب الشبان الذين سينظمون في سلك الكهنوت لكي يعلموهم التعاليم المغايرة للعقيدة الأرثوذكسية وعن طريقهم يبلبلون أفكار الشعب فتسنى لهم فرصة نشر الكتلحة، على أن سهمهم طاش أمام يقظة البابا بطرس السابع الجاوي (١٨٠٩-١٨٥٢ م)^(١) الذي بارك العمل، ولكنه اشترط وجود لجنة تتكون من أسقف ومجموعة من رهبان وادي النطرون وبعض الكهنة العلمانيين والأراخنة^(٢) لتتولى مراجعة الكتب التي تدرس، فسرعان ما اكتشفوا هدفهم فاضطروا إلى إغلاق مدرستهم سنة ١٨٤٧ م^(٣)، وساند رهبان وادي النطرون البابا كيرلس الرابع البطريرك رقم (١١٠) عند اعتلائه الكرسي المرقسي (١٨٥٤-١٨٦١ م) وقيامه بإصلاح الكنيسة؛ فتبرعوا بالأموال للمساهمة في تكلفة المنشآت (المدارس القبطية والإكليريكية) والمرتبات للمدرسين والعاملين من أجل نهضة الكنيسة القبطية ووقف الزحف الكاثوليكي والبروتستانتي^(٤).

كما تصدى البابا ديمتريوس الثاني البطريرك رقم (١١١) (١٨٦٢-١٨٧٠ م) وهو من رهبان دير أبو مقار بوادي النطرون للتبشير بالبروتستانتية واتخذ هذا التصدي صورتين: تتمثل الأولى في قرارات الحرمان التي أصدرها ضد المبشرين الأمريكيين ومن يتصل بهم من الأقباط، أو يقرأ كتبهم أو يصادق أحداً منهم أو يذهب إلى إجتماعاتهم، وقد وصفهم قرار الحرمان بأنهم "هم أعداء الدين بلا كهنة ولا أسرار ولا طقوس ولا شي سوى الكتاب المقدس الذي

(١) ولیم سلیمان قلادة: الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية. دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت، ص ٢٣-٢٤.

(٢) الأراخنة: ليس معناه الزعماء السياسيين من الوزراء أو وكلاء الوزارات أو مديري العموم أو أعضاء المجالس النيابية أو كبار موظفي الدولة أو رجال القضاء، أو من في مستواهم، بل معناه كبار الأقباط، المثقفين والعلماء بشرط أن يكونوا دارسين لعلوم الكنيسة وقوانينها، بحيث يفهمون أمور الكنيسة وبشرط أن يكونوا مواظبين على حضور صلواتها وطقوسها ويتعمقوا في دراسة عقائدها وتاريخها ومن ثم يمكن لهم النيابة عن الشعب وإرشاده في هذه الأمور انظر: إبراهيم عبد السيد القمص: البطريرك القادم، مطبعة المحبة، القليوبية ١٩٩٥ م، ص ٥٣، جرجس فيلوثاوس عوض: مقال وعنوانه « ضرورة اختيار البطريرك من العلمانيين، مجلة رسالة الحياة ملحق العدد رقم ١٠، السنة التاسعة، القاهرة ١٩٤٣ م.

(٣) داود مرقس: المرجع السابق، ٥٧٩-٥٨١؛ إلياس الأيوبي، المجلد الأول، ص ٢١٠.

(٤) وثائق دير السريان: وثيقة ٣١٣، ١٥٧٤ ش، ١٨٥٨ م؛ ميخائيل شاروويم، المرجع السابق، ص ١٣١؛

Theodore Edward Dowling, op cit, p12

لا يفهمونه، وهم الذئاب بثياب الحملان الذين يلقون بذار الهرطقة في كل أنحاء البلاد والذين كل من يتبعهم يكون ابناً لجهنم أكثر منهم“ وكان رد فعل قرار الحرمان خروج الطلبة الأقباط من مدرسة الإرسالية البروتستانتية^(١).

أما الصورة الثانية فتتمثل في تفقد البابا ديمتريوس الثاني البطريرك رقم (١١١) (١٨٦٢-١٨٧٠م) مدينة أسيوط مركز التبشير البروتستانتية، وبصحبه العالم اللاهوتي القمص فيلوثاؤس صالح خادم الكنيسة المرقسية بالأزبكية بالقاهرة، والراهب البراموسي عبد المسيح المسعودي الكبير^(٢)، بناء على رغبة الخديوي إسماعيل الذي وضع تحت إمرته باخرة نيلية سنة ١٨٦٧ بغرض الحد من نشاط الإرسالية الأميركية البروتستانتية^(٣).

(١) رياض سوربال: المرجع السابق، ص ١٤٦-١٤٩؛ آمال أسعد: المرجع السابق، ص ٢٣١.
(٢) عبد المسيح المسعودي الكبير: ولد سنة ١٨١٩م. في بلدة الشيخ مسعود غربي طهطا؛ ولهذا لقب بالمسعودي، ولما بلغ السابعة عشرة من عمره اشتاق إلى الحياة الملائكية، فقصد دير المحرق حيث ترهب، وهناك تلمذ على يد القمص بولس الدجاوي- الذي صار فيما بعد القديس الأنبا إبرآم أسقف الفيوم- فتشرب منه وداعته وهدوءه النفسي وتطلعه الروحي. بعد أن قضى في الدير المحرق ٢٢ عامًا، قرر الذهاب إلى دير البراموس مع عدد من أخوته الرهبان، وكان وصولهم لهذا الدير في الفترة التي كان يوحنا الناسخ ما زال به، قبل رسامته ليكون البابا رقم (١١٢) عيّنه البابا كيرلس الخامس ربيّة للدير بعد نياحة القمص عوض، فاهتم بأخوته الرهبان ورعاهم روحياً وجسدياً، مما جعلهم يطاوعونه في رضى، فساد السلام دير البراموس طوال رئاسته، حتى أطلق عليه الأنبا يوانس مطران البحيرة لقب «أبو رهبان دير البراموس». رُشِح ليكون أسقفًا على كرسي أسيوط فاعتذر بشدة وإلحاح، فقبل البابا ديمتريوس الثاني البطريرك (١٠٠) (١٨٦٢-١٨٧٠م) عذره، كذلك رُشِح لمطرانية الحيشة وللمرة الثانية اعتذر في تذلل شديد، فقبل البابا كيرلس الخامس البطريرك (١١٢) (١٨٧٤-١٩٢٧م) اعتذاره، إذ أدرك مدى زهده وشدة ميله إلى التوحد والدراسة وتفتيش الكتب. كان يقضي فترات طويلة متوحدًا بلغت خمسة عشر عامًا، وكان في وحدته يعيش في مغارات من صنع يديه، إذ لم يكتف بمغارة واحدة، فكان يقضي أيام الأسبوع متوحدًا، ثم يعود إلى الدير عشيات الأحاد ليقتضي لياليه داخل الكنيسة، ثم يحضر القداس الإلهي في الصباح المبكر ويتناول الأسرار المقدسة ويعود إلى وحدته. كان ماهرًا في الكتابة ذا خط جميل (قبطيًا وعربيًا)، فانشغل في نسخ الكثير من الكتب القديمة، كما ألف بنفسه العديد من الكتب الجديدة، منها رسالة بعنوان «إلى كل راهب حقيقي يريد حياة نسكسة صحيحة»، و«الإيضاحات الجليلة في أمانة الكنيسة الأرثوذكسية طبع عام ١٨٩٠م»، وبالإضافة إلى ذلك فقد شغل نفسه بتجليد الكتب، ويعمل المناطق والأساكيم، ومع كل هذه الأعمال ومع توحيده كان أب اعتراف لرهبان دير البراموس جميعًا. تنيح بسلام في ١١ توت ١٦٢١ش / ٢١ سبتمبر ١٩٠٥م عن عمر يناهز ٨٨ عامًا، قضى ٧١ منها ما بين ديري المحرق والبراموس والتوحد. انظر: إيريس حبيب المصري، قصة الكنيسة القبطية، ج ٥، مكتبة المحبة، القاهرة ١٩٨٤م ١٠٦؛ أغسطينوس البرموسي، المرجع السابق، ص ١٣٤-٢٣٥.

(٣) إيريس حبيب: المرجع السابق، ج، ص ٣٣٣؛ داود مرقس، المرجع السابق، ص ٥٨٤.

كما اعتمد البابا كيرلس الخامس البطريرك رقم (١١٢) (١٨٧٤-١٩٢٧م) على رهبان وادي النطرون في مواصلة التصدي للتبشير البروتستانتي في صعيد مصر عن طريق تعيين أساقفة ومطارنة، من بين رهبان الوادي ليتولى توعية الأقباط للمحافظة على تراث وتعاليم الكنيسة الأرثوذكسية، فاشتهر من هؤلاء الأنبا مكاروريوس الذي ترهب بدير الأنبا بشوي ورسم مطراناً على أسيوط في يوليو ١٨٩٧م، والأنبا باسيليوس الذي ترهب بدير الأنبا مقار ورسم أسقفاً على كرسي أبو تيج سنة ١٨٩٦م، وكذلك الأنبا ياكوس المقاري الذي رسم أسقفاً على المنيا، وكذلك الأنبا صرابمون الذي ترهب بدير السريان ورسم أسقفاً على النوبة والخرطوم سنة ١٨٩٧م^(١). ويتضح لنا مما سبق طرق تغلغل المذاهب الأجنبية (الكاثوليكية والبروتستانتية) وتسلبها بواسطة إنشاء المدارس والمعاهد وتقديم الخدمات الخيرية، وموقف رهبان وادي النطرون منها منذ قدومها حتى نهاية القرن فترة الدراسة. ونتمنى من الله العودة للكنيسة الواحدة الرسولية على ما كانت عليه في القرون الخمسة الأولى، وهذا ما نتمناه.

٣- اعتداءات العربان على أديرة وادي النطرون

تعتبر مشكلة اعتداءات العربان على أديرة وادي النطرون من المشكلات القديمة التي يعود تاريخها إلى أوائل القرن الخامس الميلادي، ويرجع ذلك إلى الطبيعة الصحراوية القاسية، وحياة البداوة وعدم الاستقرار والترحال والتجول للبحث عن قوت يومهم؛ لأنهم لم يكن لديهم مصدر ثابت للعيش، مما جعلهم في حالة حرب مستمرة لقيامهم بأعمال السلب والنهب والتخريب ومنذ ذلك القرن وحتى أواخر القرن التاسع عشر^(٢) لم يكفوا عن غاراتهم المفاجئة لأديرة الوادي ورهبانه، فأنزلوا بهم الكثير من الظلم نتيجة للعنف الذي كانوا يستعملونه معهم حتى إن بعض الرهبان كانوا يفرون إلى المغارات والشقوق عند اقترابهم تاركين وراءهم كل شيء، مما ترتب عليه خراب كثير من الأديرة التي كانت منتشرة بالوادي^(٣).

(١) وثائق دير السريان: وثيقة ١٠٥٥، ٢٢ يوليو ١٨٩٧م؛ صموئيل السرياني، المرجع السابق، ص ١١٣، ١٣٧، ١٦٧.

(٢) حلمي محروس: المرجع السابق، ص ١٤٢-١٤٣.

(٣) إيفلين هوايت: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٤-٤١.

وهنا لا بد أن نذكر ما تعرضت له أديرة وادي النطرون، عندما وصل مصر قائم جديد على شئون بيت المال (والي الخراج)، الا وهو أحمد بن المدبر (٢٥٦هـ / ٨٦٩م)، الذي أطلق عليه ساويرس بن المقفع اسم فرعون مصر في زمانه وذكر عنه قائلاً: ”كان رجلاً شديداً، صعباً في أفعاله، مخوفاً عند كل أحد، لا يغلب، فعل أفعالاً لم يفعلها أحد من قبل، هو كان قد أقام بفلسطين مدة كبيرة وأذاق أهل تلك البلاد صعوبة وبلايا. فلما سمع البابا شنودة الأول البطريك رقم (٥٥) (٨٥٩-٨٨٠م) بوصوله حزن وقال: الرب يزيل عن شعبه كل مؤامرة سوء كعادته، وعند وصوله - ابن المدبر - إلى مصر، وضع يده على كل أواسي المسلمين والنصارى واليهود، وأضعف عليهم الخراج، فقوم لكل دينار دينار وقوم للدينار ثلاثة حتى ملأ الحبوس في كل الأماكن، وأنفذ إلى الديارات بكل موضع وأحصى الرهبان فيها التي فيها وطالبهم بالجزية والخراج عن الحشيش الذي في البهلس وعن النخل والشجر المثمر المغروسة في بيوتهم. فلما اتصل الخبر بالبابا شنودة الأول بكما بكراً وقال: أيها الجبل المقدس وادي هيب الذي هو مينا الأنفس الضالة كيف أقام عليك هذا البلا الذي يجلب بالقدسين الساكنين فيك وقد علمت الآن أن هذا لأجل ذنوبي“^(١). وقد ساهم ابن المدبر في تشجيع العربان في الهجوم على أديرة برية شيهيت وتدميرها مما أدى إلى هجرة رهبانها، وترك بعضهم الحياة الرهبانية الديرية. وهذا ما أكدته الرحالة إيفلين هوايت حيث ذكر أن أحمد بن المدبر لم يكتفِ بالجزية ولجأ إلى فرض خراج جديد على السمار الذي ينمو ببرك الأديرة، بالإضافة إلى الاعتداءات المستمرة على الأديرة^(٢). ولعلنا نتذكر أن أحد الاعتداءات الصارخة للوزير المالي في القرن التاسع الميلادي، أحمد بن المدبر أنه أمر ”بقسرية على السمار الذي ينمو في البرك“.

وقد سعي أحمد بن المدبر ومعاونوه من العربان في القضاء على الحياة الرهبانية الديرية بتدمير الأديرة القبطية بوادي النطرون، وأيضاً بالقضاء على الكنائس بشتى ربوع مصر حيث

(١) ساويرس بن المقفع: تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطارقة، ج ٥، إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠١٢م، ص ١٠٢-١٠٥.

(٢) إيفلين هوايت: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٧٨-١٧٩.

ذكر ساويرس ابن المقفع قائلاً: ”وكان هذا الرجل الظالم يفتكر ماذا يفعله بالسبع ديارات^(١)، والبطريك والأساقفة، ومن شر ما فعله أنفذ إلى كل مكان نواباً عنه، فمضوا على قومة البيع وأحضروا ما عند كل واحد من آلة البيع لتحمل إليه ويطلبوا القومة بديارية الأساقفة ويحملوها إلى الديوان. وكذلك بيع مصر قبض عليها وأحصى ما فيها من الآلة، حتى أنه أمر أن تغلق البيع (الكنائس) التي بها، ولا يمكنوهم من القربان إلا في بيعة واحدة، وكان النواب عنه يأخذوا القومة في كل مكان يحبسهم ويقيدوهم بالحديد ويحملوهم إلى مصر ليقوموا بالديارية للديوان. وعول أنه في زمانه أجمع يأخذ مال البيع والأساقفة والديارة للديون^(٢). ولم تنته أعمال الاعتداءات على الأديرة والكنائس إلا بتولى أحمد بن طولون الذي بادر إلى إلغاء الرسوم والضرائب الجديدة التي فرضها ابن المدبر، ورحيل ابن المدبر الذي يعتبر آخر من حكم في مصر لحساب حكومة بغداد^(٣).

وهنا يجب أن نسجل أن أديرة وادي النظرون تعرضت لسلسلة من الغارات، كان أشدها ما بين عامي (٤٠٧-١٠٦٩م)^(٤) وكان يصاحب هذه الاعتداءات عمليات سلب ونهب وقتل وأسر للرهبان لمدة تطول أو تقصر، ولكن عقب كل غارة كان الرهبان يعودون فيتجمعون في البرية من جديد، ليعيدوا بناء ما قد تحرب، وجمع شتات تلاميذ الرهبنة^(٥). وقد أجمع الرحالة الزائرون لوادي النظرون على اعتداءات العربان على أديرة البرية، لدرجة أن الرحالة أنفسهم لم يسلموا من اعتداءاتهم حيث ذكر فانسليب الذي زار الأسقيط عام ١٦٧٢م أنه تعرض لحادثة مبتذلة على أيدي مجموعة من البدو، دفعته إلى التخلي عن زيارته للأديرة وبقي بالطرانة، أما الأب كلود سيكار (١٦١٧٧-١٧٢٦م) فقد أكد على أن حصن الدير كان هو الملجأ الوحيد

(١) السبع ديارات: مقاريوس، ويوحنا القصير، وبيشوى، ومكسيموس ودماديوس، وموسى الأسود، وكاما، وعذراء السريان القديسة لمزيد من التفصيل انظر: ماجد عزت إسرائيل، وادي النظرون في القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص ٢٨٩-٣٠٦.

(٢) ساويرس بن المقفع: تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطارقة، المرجع السابق، ص ١٠٢-١٠٥.

(٣) جاك تاجر: أقباط ومسلمون، المرجع السابق، ص ٩١.

(٤) لمزيد من التفصيل انظر: سمير جرجس، المرجع السابق، ص ٦٧.

(٥) بولا البراموسي: دير السيدة العذراء براموس، رسالة ماجستير، غير منشورة، معهد الدراسات القبطية، القاهرة ١٩٩١م، ص ١٤١-١٤٣.

من طغيان العربان، أما الرحالة تشارلز سونيني (١٧٥١-١٨١٢م) الذي زار البرية عام ١٧٧٨م فتعرض لحادثة سرقة في أثناء سفره للوادي على يد بدو الصحراء، ووصف لنا مشهد حدث أمامه حيث روى أن دليله حسين العربي اقتحم دير البراموس ونهب وخرب الدير^(١).

وقد تناقصت أعداد أديرة وادي النظرون نتيجة لاعتداءات العربان، فبعد أن كانت نحو ٣٦٦ ديرًا ثم خمسين ديرًا منذ القرن الخامس الميلادي أصبحت نحو عشرة أديرة عند مجيء الفرنسيين إلى مصر سنة ١٧٩٨م واندثرت منها ستة أديرة، ولم يبق سوى أربعة أديرة عامرة - على نحو ما رأينا - خلال فترة الدراسة^(٢).

على أية حال، لم تسلم هذه الأديرة من أيدي العربان المغيّرين، ومن ذلك تعرّض دير البراموس في أوائل القرن التاسع عشر لهجمات العربان، فأعملوا السلب والنهب والقتل بين نساكه وحل الخراب كالمعتاد فهرب أغلب الرهبان وتشتتوا في جميع أنحاء البرية، ولم يتبق إلا راهب واحد يدعى^(٣) عوض الإبراهيمي^(٤) وبعد فترة ليست بقصيرة عاود العربان الاعتداء

(١) إيفلين هوايت: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٥٩-١٦٩.

(٢) داود حناوي: المرجع السابق، ص ٥٧٢-٥٧٣.

(٣) تعداد نفوس: س رقم ١٧٩، ل/٩/٧٩/٥٤ تعداد ناحية كفر داو دبقسم النجيلة، لسنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م، ص ٣١.

(٤) عوض الإبراهيمي: ولد في بلدة براهيم من أعمال المنوفية، لم نستدل على تاريخ مولده، في أواسط القرن التاسع عشر كان في دير البراموس سبعة رهبان، كان من بينهم القمص عبد المسيح جرجس المسعودي الكبير رئيسًا للدير فجعل الراهب عوض أمينًا للدير، وطرده خمسة رهبان، وبقي الإبراهيمي بالدير ومعه رجل علمانة أسمه الحاج إبراهيم ثم تركه، فبقى عوض نحو ثلاث سنوات وحده، وكان يأتي كهنة دير السريان ولاسيما القمص جرجس الفار، فيصل قداسًا للراهب عوض في الكنيسة في الأيام الأكثر لزوماً. وبعد نياحة القمص عبد المسيح، اتخذ الإبراهيمي القس حنا أحد رهبان الدير المطرودين وجعله قمصًا ورئيسًا على الدير، وكان زاهدًا، وفي أثناء رئاسته جاء القمص يوحنا الناسخ (البابا كيرلس الخامس)، وكان شماسًا ابن العشرين عامًا، لقد اهتم الراهب عوض والقمص حنا بتعمير الدير، لدرجة وصل عدد اعداد الدير نحو (٢٦) راهبًا، كان الإبراهيمي فاقد البصر، ولكنه كان مستنير العقل، وكان طويل القامة ولحيته أيضا طويلة وبيضاء، شفقًا رحوماً، لابسا الاسكيم، تتحرك شفثاه عاليًا بالصلاة، وكان دائما يقول مقولته المشهور للرهبان حيث يذكر قائلا: الراهب راهب من بيت أبيه، ومعنى قوله: أن الصالح والجيد في بيت أبيه صالح وجيد في الدير والعكس بالعكس». ونؤكد أن الراهب عوض الإبراهيمي أنقذ دير البراموس من اعتداءات العربان المستمرة بحكمته، وساهم في بقاء هذا الدير عامرًا، ظل يجاهد في حياته الروحانية حتى تنيح في مايو ١٨٧٨م انظر: أغسطينوس البرموسي، المرجع السابق، ص ١٣٢-٢٣٣.

على نفس الدير مرة ثانية، ولكن باءت محاولتهم بالفشل؛ لأن الدير كان محصناً جيداً من قبل الراهب الكفيف^(١).

وكان هجوم العربان على أديرة وادي النطرون لا ينقطع، خاصةً إذا ما ترامي إلى علمهم انتعاش الأديرة وازدهارها، فكانوا يعيدون الكرة والانقضاض على الأديرة ورهبانها وسلب ونهب ما بها، مثلما تعرض دير الأنبا بشوي لهجوم من جانب مجموعة من العربان انتهى باستيلائهم على ما يمتلكه الدير من أدوات ومؤن غذائية^(٢). وكذلك تعرض دير الأنبا مقار لاعتداءات من عربان الواحات والفيوم، فنهبوا ما فيه من متاع وزاد وجرودوا من فيه مما عليهم بالقوة^(٣). وزادت اعتداءات العربان على أديرة الوادي في موسم اقتلاع النطرون، حيث كانوا يجتمعون ويسكنون حول بحيرات النطرون، وتعددت قبائلهم، فكان منهم الجمعيات والجوابيص والحراي وغيرهم، فأتاحت لهم الفرصة الإقامة إلى جوار الرهبان، مما أدى إلى اعتداءاتهم على أديرتهم من أجل أعمال السلب والنهب^(٤).

ولجأ بعض العربان خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى الاعتداء على القوافل والمترددین على الأديرة والعاملين عليها، فعلى سبيل المثال قام بعض العربان بالاعتداء على قافلة متجهة إلى دير السريان قادمة من عزبة الدير بأتريس بالجيزة وسلبوا ونهبوا ما بها من بلاطة لفرن الدير ومؤن غذائية للرهبان^(٥) كما اعتدى آخرون من العربان على مجموعة من المترددین على الأديرة وقاموا بتجريدهم من أموالهم وملابسهم^(٦) وقام بعضهم بالاعتداء على صراف عزبة دير السريان ونهبوا ما معه من أموال^(٧).

(١) بولا البراموسي: دير السيدة العذراء، المرجع السابق، ص ١٤٢-١٤٤.

(٢) وثائق دير السريان: وثيقة رقم ٢١١٣، ٨ صفر ١٢٢٥هـ/ ١٥ مارس ١٨١٠م.

(٣) معية سنية عربي: دفتر ١٦٠٩، أوامر، أمر رقم ٩٥، ٤ ربيع ١٢٤٨هـ/ ١ أغسطس ١٨٣٢م، ص ١٣.

(٤) محكمة البحيرة الشرعية: س ٢٧، م ٦٢٥، ١ جمادى الآخرة ١٢١٦هـ/ ١١ أغسطس ١٨٠١، ص ٣١٤؛

ديوان معية سنية عربي، دفتر ١٤، أوامر، أمر مرقم ٣٨، ٩ جمادى الأولى ١٢٦١هـ/ ١٦ مايو ١٨٤٥، ص ٦.

(٥) وثائق دير السريان: ملف القوافل، وثيقة رقم ٩٣٥، ١٧ أمشير ١٥٩٨ش/ ١٨٨٢م.

(٦) نفسه: وثيقة ٤٦٩، ٢٢ بؤنة ١٦١١ش/ ١٨٩٥م.

(٧) نفسه: وثيقة ٩٧٠، أول مارس ١٨٩٤م.

وخلاصة القول، إنه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قلت الاعتداءات على أديرة وادي النطرون، وما حدث منها فهي حالات تكاد أن تكون فردية، فربما يرجع ذلك إلى سياسة محمد علي التي اتبعتها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر نحو نشر الأمن وتوطين البدو بالبلاد مما حدّ من هذه الاعتداءات، وقد استمرت هذه الحال حتى نهاية القرن التاسع عشر^(١).

أما فيما يتعلق بموقف رهبان أديرة وادي النطرون من اعتداءات العربان، فقد عملوا على تحصين الدير أمامهم، بتعليته وترميم أسواره، ومراقبتها من غرفة الرقوبة (غرفة المراقبة)^(٢)، أو ضرب الناقوس ضرباً مختلفاً كإشارات دالة على أن هناك خطراً من غارات للعربان أو قطاع الطرق وللصوص الفرادي وعابري السبيل فكان الناقوس لغة مفهومة من طرف واحد وهو الرهبان^(٣).

كما لجأ رهبان وادي النطرون إلى العربان أنفسهم لحراستهم في مقابل تقديم واجب الضيافة؛ لأن العربان كانوا يتنقلون من مكان إلى مكان ليلاً، ويمرون بالأديرة في أثناء جولاتهم ويتوقفون ليتناولوا طعامهم ولكي يستريحوا ويريحوا خيولهم، وكانوا يقدمون إليهم واجب الضيافة من وراء الجدران، إذ لا يفتحون الأبواب ليلاً، وقد اضطروا لذلك حتى لا يتعرضوا لاعتداءات العربان خارج الأديرة نهباً أو سلباً أو قتلاً على أيدي هؤلاء^(٤).

كذلك اعتمد رهبان أديرة وادي النطرون على بعض العربان في تأدية بعض الخدمات التي قد تعرضهم للاعتداء عليهم بالسلب أو النهب من أقرانهم، وكان من ذلك لجوء رهبان دير

(١) معية سنية تركي: محفظة ٢٢، ملخصات دفاتر، دفتر ٥٩٢، وثيقة ٣٣٧، ٢١ شعبان ١٢٦٤هـ/ ٢٣ يوليو ١٨٤٨ م.

(٢) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٧؛ إيفيلين هوايت، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٨-١٥.

(٣) سمير جرجس: المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٤) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٦-٦٧.

الأبنا بشوي إلى علي صالح والحوفي الحجاوي لرعي مواشي الدير بالوادي^(١) كذلك اعتمد دير السريان على منصور عامر^(٢) وعامر شريعة في صحبة قوافل المؤن ما بين عزبة الدير باتريس والدير الذي بالوادي^(٣).

ومما تجدر الإشارة إليه أن تلك الاعتداءات كان يتخللها بعض العلاقات الحميمة بين الرهبان والعربان، فعلى سبيل المثال حدث صراع بين اثنين من العلمانيين ممن هم تحت الاختبار للرهبة بديري السرياني والأبنا بشوي، وصل خبره إلى حاكم الطرانة، فتدخل أحد العربان لديه ووعد بإنهاء النزاع والصلح فيما بينهما، فحكم عليهما بغرامة خمسة قروش تُدفع لدى الحاكم ووافق الطرفان على حكم الأعرابي^(٤) وعندما وشى أحد الرهبان للبابا كيرلس الخامس، البطريك (١١٢)(١٨٧٤-١٩٢٧م) باستيلاء القمص يوحنا على أموال الدير، قام عربان وادي النظرون بكتابة شهادة موقعة من مجموعة منهم تشهد بحسن سير وسلوك والتزام هذا لإزالة شك البطريك^(٥).

كما اعتمدت أديرة وادي النظرون على العربان في عملية النقل مثل نقل بعض مواد البناء، والمؤن من عزب الأديرة باتريس بالجيزة وكفر الدوار بالبحيرة^(٦) ونقل الرهبان والزائرين بواسطة الإبل ودواب الحمل من الأديرة إلى الطرانة لوجود مرسى للنيل بها حتى يتسنى لهم الانتقال إلى القاهرة أو الإسكندرية أو رشيد^(٧) كذلك إمدادهم بالعمالة في بعض الأشغال المؤقتة

(١) مديرية البحيرة: س ١٠٣٢، وارد الفروع لقسم النجيلة، وثيقة ٧، ٨٨٨، من ذي القعدة ١٢٨٤هـ /، ص ١٥٥.

(٢) وثائق دير السريان: وثيقة ٩٣٥، ١٧ أمشير ١٥٩٨ / ١٨٨٢م.

(٣) نفسه: وثيقة ١٣٠٥، ١٦٠١ش / ١٨٨٥م؛ انظر: ملحق رقم (١٣)، ص ٢٦٦.

(٤) دير السريان: مخطوط ٢٤٩، ميامر، ١٥٨١ش / ١٨٦٥م؛ انظر: ملحق رقم (٢٠)، ص ٢٧٣.

(٥) نفسه: وثيقة رقم ٦٠٩، ٧ يناير ١٨٩٣م.

(٦) نفسه: وثيقة رقم ٦٠٣، ٢ ربيع الأول ١٢٣٦هـ / ٨ ديسمبر ١٨٢٠م؛ انظر: ملحق رقم (١٣)، ص ٢٦٦.

(٧) نفسه: وثيقة ٦٢٥، ٢٥ رجب ١٢٩٣هـ / ١٦ أغسطس ١٨٧٦م.

بالدير أو الدائمة بعزب الأديرة، كل ذلك كان لا يتم إلا في جو تسوده العلاقات الحميمة بين الرهبان والعربان^(١).

أديرة وادي النطرون وظاهرة شراء المخطوطات

منذ تشيد أديرة وادي النطرون بالصحراء الغربية بمصر، ومعظم الحجاج المسيحيين والرحالة الأوروبيين يحرصون بعد أداء الحج في مدينة أورشليم (القدس) وعلى زيارة المزارات المسيحية في مصر ونذكر على سبيل المثال زيارة دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء، وأديرة برية شيهيت وأديرة البرية الشرقية حيث ديرى الأنبا بولا والأنبا أنطونيوس، وأديرة الصعيد بجنوب مصر، وكذلك كان هناك اهتمام خاص بالتعرف على ما تحويه المكتبات من كنوز ثمينة^(٢) وتميز القرن السابع عشر الميلادي باتجاه الغرب وعلى رأسهم فرنسا نحو بلاد الشرق لحرصها على كشف أسرارها، عن طريق إرسال البعثات التبشيرية، لتقوية الصلات التجارية وفتح أسواق جديدة، ولتوطيد هذه العلاقات والنظر إلى مستقبل فرنسا المشرق، أصدر الوزير الفرنسي "كولير" أوامره في ١٧ نوفمبر ١٦٦٩م، بتأسيس مدرسة للترجمة، فتم الاتفاق مع الآباء الكابوس في منطقة بيرا وأزمير على إرسال ثمانية عشر طفلاً تتراوح أعمارهم بين التاسعة والعاشر لكي يتعلموا في أديرة هؤلاء الرهبان اللغة العربية والتركية ثم يتم توزيعهم على أسكالات الشرق، وقد عمل بعضهم أساتذة للغة العربية في الكلية الملكية الفرنسية، وفي كلية لويس لى جران، واهتم آخرون بالاستشراق وعينوا في مدرسة اللغات الشرقية، ومنهم من عمل مترجماً لملك فرنسا، وساهم ذلك في فتح آفاق جديدة نحو الشرق، وعلى الرغم من ذلك عبر الرحالة الفرنسي "جان تينو" عن أسفه لعدم وجود أعداد كبيرة من الرحالة الذين زاروا مصر^(٣).

(١) نفسه: وثيقة رقم ١١٩٤، ٢٣ برمهات ١٦٠٢ ش.

(٢) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، المرجع السابق، ص ١٢٤.

(٣) نفسه: ص ٣٥-٥٢.

وهنا لا بد أن نسجل أن الغرب كان لديه اهتمام كبير بالشرق وخاصة مع بدايات عصر النهضة، أي ما بين القرن الرابع عشر الميلادي إلى القرن السابع عشر، وربما في أواخر ذات الفترة بدأت ظاهرة أو فكرة شراء المخطوطات والنقوش والآثار وترجمتها لمعرفة التراث الثقافي بأى وسيلة، ومن أجل ذلك سعى بابا روما "يوليوس الثاني" (٥ ديسمبر ١٤٤٣-٢١ فبراير ١٥١٣م)، والذي يعرف باسم "البابا المحارب"، وأحد أشهر باباوات هذا العصر، بتأسيس مطبعة عربية؛ ونشر أول كتاب باللغة العربية ويعرف بـ "صلاة السواعي" أو الأجيبة (ajpia) ^(١) عام ١٥١٤م. وفي ذات الفترة صدر في فرنسا أول كتاب باللغة الفرنسية عن تاريخ مصر وحضارتها، وتم تدواله من قصر إلى قصر ومن كنيسة لكنيسة، فزادت الرغبة لديهم لزيارة مصر، ويعتبر "جريفان أفاجار" وهو من رجال الدين ومن أثرياء مدينة رين (Rennes)، أول من زار مصر بعد أن أصبحت ولاية عثمانية حيث زارها في عام ١٥٣٣م، وبعد ذلك توالى على زيارتها ولا يزال العديد من الرحالة والشخصيات في شتى المجالات العلمية ^(٢).

وانفرد القرن الثامن عشر الميلادي، وخاصة بعد أن أصدرت العديد من دول أوروبا بعض المؤلفات التي تتناول حضارة مصر وتراثها وكنوزها، بمجيء مجموعة كبيرة من الرحالة

(١) صلاة السواعي: أو الأجيبة ajpia هي كلمة قبطية تعني "كتاب السواعي" أو كتاب الساعات وهي السبع صلوات على مدار اليوم. قد تم ترتيب ساعات الصلوات زمنياً، وكل منها فكرته عبارة عن جزء من حياة السيد المسيح على الأرض. وكل ساعة منها مكونة من مقدمة يتم البدء فيها بـ: الصلاة الربانية أبانا الذي في السماوات، ثم صلاة الشكر، وبعدها المزمور الخمسون، ويتبع تلك المقدمة الثلاثية، تلاوة مجموعة من الزمائر، ثم مقتطف من أحد الأناجيل، ثم قطع الابتهالات. وبعد ذلك يتم قول "كيريا ليصون" أي "يارب ارحم" ٤١ مرة، وهذا العدد يمثل ٣٩ جلدة التي تلقاها السيد المسيح قبل الصلب، بالإضافة إلى واحدة للحربة في جنبه، وأخيرة للشوك الذي وُضِعَ على رأسه، ثم بعض الصلوات القصيرة الأخرى قدوس - قدوس - قدوس الله - قطعة إضافية قبل كيريا ليصون في صلاة النوم، ثم ختام كل ساعة، وبعد ذلك صلاة ارحمنا يا الله ثم ارحمنا، والختام بالصلاة الربانية لمزيد انظر: الأجيبة، مكتبة المحبة بالقاهرة ١٩٩٦م.

(٢) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، المرجع السابق، ص ٦٣-٦٧.

والمستكشفين من أجل الزيارة والبحث عن المخطوطات والنقوش وشرائها من أديرة وادي النظرون وغيرها من أديرة مصر، وعبروا عن قيمة وتراث وحضارة مصر، نذكر منهم على سبيل المثال، الرحالة الفرنسي "فورمون" Fourmont ويكفي ما ذكره في كتاباته أن مصر قد ملأت العالم فخراً ومجداً بحضارتها وآثارها"، وتعتبر رحلة الأثري "بول لوكاس" paul Lacas إلى مصر أهم الرحلات التي تمت في الفترة ما بين (١٧١٤-١٧١٩م) وقد سجل رحلاته ودونها في مذكرات تم طبعها عام ١٧٧١م، كما أنه قام بشراء العديد من المخطوطات والنقوش، وخير دليل على ذلك استعان بأعضاء أكاديمية المخطوطات وعلماء الآثار في تفسير ما أحضره معه من مصر^(١).

ومن الجدير بالذكر أن نياقة الأنبا "مارتيروس" أسقف عام الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر، أكد في مؤتمر التراث بالبحر الأحمر في مارس ٢٠١٣، أن مخطوطات دير الأنبا "أنطونيوس" وأديرة وادي النظرون المكتوبة باللغة القبطية والسريانية في الفترة ما بين القرن الرابع عشر والتاسع عشر الميلاديين، قد سرقت من قبل بعض الرحالة الأوروبيين لشغفهم بهذه المخطوطات والرغبة في اقتنائها^(٢).

على أية حال، زار الأب "دورفال" D'Orval مصر في عام ١٧٤٧م وكان الغرض الرئيسي من رحلته هو الحصول على المخطوطات العربية ولقى التشجيع والمساعدة من رجال السياسة، كما جاء أيضاً إلى مصر "سافاري" عام ١٧٧٧م، وكتب العديد من المؤلفات عن مصر وهي ذات أهمية كبيرة، أما أشهر الرحالة الروس الذين زاروا مصر "هيوليت فيكنسكي" حيث زار الأماكن المقدس ودير القديسة كاترين، وأيضاً "بينودي ميليه" من اللورين (١٦٥٦-١٧٣٨م) الذي كان قنصلاً في مصر ١٦٩٢م، حيث أشار إلى اهتمامه بالتاريخ القبطي فكتب قائلاً: "لابد

(١) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين، المرجع السابق، ص ٢٣٧.
(٢) جريدة الوفد: خبر نشرته ولاء وحيد بعنوان «الأنبا مارتيروس يكشف سرقة مخطوطات قبطية نادرة»، بتاريخ ١٥ مارس ٢٠١٣.

من الكشف عن المخطوطات الهامة في الأديرة القبطية^(١)، وكان البعض من الرحالة ورجال الدين ينشرون أخبارًا مضللة أو كاذبة عن رحلاتها حتى يتسنى لبني جنسهم اقتنائها، ونذكر منهم على سبيل المثال المطران الإنجليزي “ريتشارد بوكوك” (١٧٠٤-١٧٦٥ م) Richard Pococke^(٢). هنا ينبغي أن نشير إلى مدى الاهتمام من جانب الرحالة الزائرين جميعًا بالبحث عن المخطوطات والنقوش بالأديرة والكنائس القبطية وخاصة أديرة وادي النطرون، فقد كلف بعضهم بشراء المخطوطات العربية والقبطية مثل الأب دورفال وفورمون لاثرء المكتبة الملكية في باريس وخاصة أثناء وجود الحملة الفرنسية في مصر (١٧٩٨-١٨٠١ م)^(٣).

ومنذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي ومع حدوث الاستقرار في إدارة البلاد، خاصة بعد تولي “محمد علي” باشا حكم مصر (١٨٠٥-١٨٤٨ م)، زادت زيارات الرحالة الأوروبيين لمصر^(٤)، وفي ذات اللحظة زاد عدد الدراسات حول النص المسند للكتاب المقدس في أوروبا، وبالطبع زاد الطلب والبحث في الشرق وخاصة في الأديرة القبطية على شراء النقوش والمخطوطات، وكان لكثرة هذه الظاهرة أطلق البعض على ممارستها “بالسراق”، والحقيقة التاريخية أن غالبية الزائرين كانوا يحرصون على شراء المخطوطات، وهذا ما أكدته كل من “روبرت كرزون” Robert Carsen، والرحالة الإنجليزي “وليم تيرنر” الذي زار مصر عام ١٨١٥ م، وأكد له ذلك الرهبان في الأديرة التي قام بزيارتها، وأيضًا الإنجليزي “وليم جون بانكيك” الذي تحدث عن قيمة وكنوز الكنيسة الشرقية، وهنا يجب أن نسجل دور الرهبان في الحفاظ على الأديرة ومقدساتها لأنهم كانوا يدركون قيمة الكنوز الثمينة التي يمتلكونها، وفي ذات اللحظة يعرفون رغبة الزائرين الأوروبيين في شراء المخطوطات أو سرقتها أو نهبها،

(١) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن الثامن عشر، المرجع السابق، ص ٨١-٨٧، انظر: ملحق رقم ٣.

(2) Rachel Finnegan, letters from Abroad: The Grand Tour Correspondence of Richard Pococke & Jeremiah Milles. Volume 3, Letters from the East (1737/1741-).

(٣) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن الثامن عشر، المرجع السابق، ص ٢٣٧-٢٣٩.

(٤) جهادية: محفظة ١٧، أمر عال ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٢٢٣ هـ/ ٢ يونيو ١٨٠١ م.

ولذلك لجؤوا إلى إغلاق المكتبة أحياناً وتركها بدون تنظيم ومحاولة أهمالها، أو ترك الحشرات بها أو ترك قصصات قديمة بالقرب منها، وهذا كله كنوع من الخدعة من أجل تأمينها، ولذلك أجمع معظم الرحالة الذين زاروا برية شيهيت على جهل وتخلف الرهبان، ولكن الحقيقة عكس ذلك لان الرحالة نسوا أن السيد المسيح علمهم التواضع والبساطة في كل شيء والزهد والفقر الاختياري وكل ذلك من قوانين الحياة الرهبانية، وهذا ما أكده كثير من الرحالة والباحثين المستشرقين ونذكر منهم على سبيل المثال الرحالة السويسري الشهير "جون لويس برکهارت" (١٧٨٤-١٨١٧م) Jean Louis Burckhardt^(١) والأمريكي الدكتور "إدوارد روبنسون" (١٧٨٤-١٨٦٣م)^(٢) والرحالة والمؤرخ إيفلين هوایت^(٣). ومنذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا فرض رهبان أديرة وادي النظرون رقابة شديدة - إلى حد ما- على مكتبات المخطوطات والكتب القيمة بالبرية.

والآن يجب علينا متابعة أهم الرحالة الزائرين لمنطقة وادي النظرون والمهتمين بشراء أو سرقة المخطوطات الموجودة بمكتبات أديرة البرية بأى وسيلة، فنذكر منهم على سبيل المثال الراهب جيلس دي لوش الكبوشى الذي زار الوادي في عام ١٦٣٣م، وأعلم هذا الأب، بيرسك أن هناك كتب قيمة في أديرة مصر، وذكر بصفة خاصة مكتبة دير السريان^(٤). حيث ذكر أنها تحتوي على ثمانية آلاف مجلد، وأطلق عليه اسم "كنوز دير السريان الأدبية". ومن هنا اهتم بيرسك في الحال بهذه المعلومة فتواصل في عام (١٦٣٤م) بـ "أجاثنج دوفندوم" الذي تفاوض من أجل شراء كتاب المزامير ذى الأصل المتعدد اللغات (باريرني)^(٥) المحفوظ حالياً في ميلان بإيطاليا

(1) https://de.wikipedia.org/wiki/Jean_Louis_Burckhardt.

(2) https://de.wikipedia.org/wiki/Edward_Robinson.

(٣) إيفلين هوایت: المرجع السابق، ج ١٧٨، ٢.

(٤) مكتبة دير السريان: تعد من أهم مكتبات برية شيهيت لاحتوائها على العديد من المخطوطات النادرة على مستوى مكتبات العالم، وكاتب هذه السطور عمل بها فترة زمنية ما بين عام (٢٠٠١-٢٠١١م) حيث قام بفهرسة الوثائق وبعض المخطوطات، وكشف النقاب عن العديد منها.

(٥) باريرني: عرفت هذه المخطوطة بهذا الاسم لأنها كتبت بعدة لغات وهي: الأرمينية والعربية والقبطية والسريانية والحبشية. لمزيد من التفصيل انظر: ملحق رقم ٢.

من ربيته دير القديس الأنبا مقار بوادي النطرون^(١). والحقيقة أنه لا يوجد ما يثبت أن دوفندوم قد زار البرية، ولكن المثبت أن الأوروبيين كانوا على اتصال مباشر برهبان شيهيت، وهنا يجب أن نؤكد حقيقة للتاريخ أن الزائرين الأولين مهدوا الطريق للزائرين الآخرين فقد تظهر قطعة الجرافيت في كنيسة الملاك ميخائيل بدير القديس مقاريوس أن الرحالة الفرنسي كلود دوران زار وادي النطرون عام ١٦٤٠م وتبعه بعدها بعامين اثنين آخرين في عام ١٦٤٤م^(٢).

أما روبرت هنتنجتون الذي زار وادي النطرون ما بين (١٦٧٨-١٦٨١م)، أكد وجود نسخة من الكتاب المقدس للعهد القديم بمكتبة دير السريان باللغة السريانية في المكتبة، وذكر أيضاً أنه لا يوجد شيء يستحق ذكره بدير الأنبا مقار إلا مكتبة الدير التي تحتوي على العديد من الكتب والمخطوطات^(٣)، كما وفد إلى مصر في عام (١٧٠٧م) إيلياس السمعاني أمين مكتبة الفاتيكان بتكليف من بابا روما وبصفة خاصة من أجل الإطلاع على مجموعة المخطوطات الشرقية، ونجح السمعاني بفضل لباقتة وسهولة حديثه من جانب وكياسه البطريرك القبطي من ناحية أخرى في حمل (٤٠) مجلداً منتقاة من مكتبة دير السريان، وذكر في مذكراته القبو المظلم الذي اكتشف فيه مجموعة من هذه المخطوطات^(٤).

كما زار الأب "كلود سيكار" Claude Sicard (١٦٧٧-١٧٢٦م) الذي كان أستاذاً للدراسات الإنسانية في ليون، مصر عام ١٧١٢م وكان الغرض من زيارته "تحويل الأقباط للمذهب اليسوعي" والتعرف على طبيعة مصر، فزار أديرة وادي النطرون، وأكد على أهمية مكتبة دير الأنبا مقار حيث ذكر قائلاً: "إنها عامرة بالكتب القيمة والمخطوطات ولكنها تدور

(1) Paper manuscript in the Vatican library, Barb. or. 2, f. 3r, Psalter in five languages (Ge>ez, Syriac, Bohairi Coptic, Arabic, Armenian).

(٢) مخطوطة باريبرني، محفوظة في مكتبة الفاتيكان، باسم باري. أو ٢٠، و ٣٢، أو سفر المزامير بخمس لغات هي: الأرمنية والعربية والقبطية والسريانية والحبشية.

إيفلين هوايت: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٥٧.

(٣) صموئيل تاو وروس السرياني: المرجع السابق، ص ٨٣.

(٤) مرتيروس السرياني: المرجع السابق، ص ١٥٨.

حول شهداء الأقباط في عهد الرومان“^(١)، كما ذكر أن المكتبة تحتوي على ثلاثة صناديق أو أربعة من المخطوطات القديمة، وهي باللغة القبطية والعربية^(٢)، وأيضاً أكد قيمة مكتبة دير البراموس حيث ذكر قائلاً: ”في دير البراموس العديد من الكتب والمخطوطات باللغة اليونانية والقبطية، ولكن الرهبان يهملون الكتب ويضعونها على الأرض حيث تتجول فيها الحشرات“^(٣)، كما حقق يوسف السمعاني الذي زار وادي النطرون بصحبة الأب كلود سيكار في عام ١٧١٥م، حيث مكث نحو ثمانية أيام في دير الأنبا مقار، واستطاع أن يحصل على مجموعة لا تقدر بثمن من المخطوطات القبطية موجودة حالياً بمكتبة الفاتيكان، ولكنه حقق نجاحاً محدوداً في دير السريان^(٤).

وقد تعجب ”جرانجيه“ الذي زار وادي النطرون عام ١٧٣٠م من سلوك الرهبان الذين يفضلون أن تبلى هذه المخطوطات وتتآكل بفعل الأتربة عن أن يقوم أحد بنشرها وربما لسان حاله يقول شرائها أو نهبها، وقد وصف سونيني الذي زار برية شيهيت عام ١٧٧٨م الرهبان في دير الأنبا مقار بالجهل الشديد لأنهم لم يسمحوا له بالإطلاع على مكتبة الدير^(٥). وأكد أن رهبان دير البراموس يحتفظون بالمكتبة بكتبهم المكتوبة باللغة القبطية ولا يهتم الرهبان بهذه المخطوطات المهمة كلية^(٦). أما الجنرال أندريوس الذي زار وادي النطرون في أثناء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١م) فقد وصف وصفاً دقيقاً قيمة مكتبات أديرة برية شيهيت حيث ذكر قائلاً: ”رجال الدين عور وعميان والكتب التي بين أيديهم ليست سوى مخطوطات صوفية، مكتوبة على رق أو على أوراق من القطن، وبعضها مكتوب بالعربية، وبعضها الآخر مكتوب باللغة القبطية، وعليها في الهامش ترجمة عربية، وعندما تصفحنا المخطوطات الأخيرة وجدنا

(١) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين، المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٢) إيفلين هويت: المرجع السابق، ج ٢، ١٦٤.

(٣) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين، المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٤) سمعان السرياني، الراهب: المرجع السابق، ص ٩٠-٩٤.

(٥) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن الثامن عشر، المرجع السابق، ص ٢٣٧-٢٣٩.

(٦) إيفلين هويت: المرجع السابق، ج ٢، ١٦٥.

أنها ربما تعود إلى ستمائة عام“^(١). كما أكد روبرت كورزن الذي زار مكتبة دير السريان عام ١٨٣٧م، على أنه اكتشف مجموعة نادرة من المخطوطات بكتوبة باللغة القبطية والسريانية^(٢).

كما زار وادي النطرون عام ١٨٣٨م “هنرى تانام” رئيس الشمامسة، ورفيقة سفره الأنسة “بلات”، الذي رفض رهبان دير السريان فكرة بيع المخطوطات النفيسة لهم فتهكموا عليهم بكلمات بالية^(٣). وفي دير مقاريوس ذاته، لاحظ ولكنسون عام ١٨٤٣م أنه توجد مخطوطات كثيرة مربوطة وفي حالة جيدة، على الرغم من أن الأرضية كانت مغطاة بقصاصات بعضها وأوراق المخطوطات التي أهملت. كما أخبرنا الرحالة قسطنطين تشيندروف الذي جاء إلى مصر ثلاث مرات، كانت الزيارة الأولى عام ١٨٤٤م حيث زار دير القديس الأنبا مقار؛ ووجد بمكتبة الدير مخطوطات كثيرة - ونجح تشيندروف بأسلوبه الألماني الجميل في جمع العديد من قصاصات المخطوطات التي عثر عليها في هذا الدير، واعتمد عليها في العديد من أبحاثه ودراساته^(٤).

وفي ذات الزيارة لمصر عام ١٨٤٤م زار تشيندروف دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء، واكتشف نحو ٤٣ ورقة مخطوطة، حاول اقتناءها والاحتفاظ بها لنفسه عن طريق صديقه. ولذلك أشار في كتابه الذي ضم الثلاث والأربعين ورقة من العهد القديم، والذي يعرف باسم مجلد (فريدريك أوغسطس الثاني) نسبة إلى ملك إقليم سكسونيا، إلى أن مصدر تلك المخطوطات من مكان ما في الشرق مجاور لمصر، دون أن يحدد المكان حتى لا يلفت نظر بعض الباحثين وتجار المخطوطات والنقوش لمكان مصادره^(٥)، كما طلب من صديقه الدكتور

(١) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٣-٦٧.

(٢) إيفلين هوایت: المرجع السابق، ١٧٦-١٧٧.

(٣) جيمس بتلي: جيمس بتلي: اكتشاف الكتاب المقدس قيامة المسيح في سيناء، ترجمة آسيا محمد الطريحي، دار سيناء للنشر، القاهرة ١٩٩٥م، ص ٤١-٤٢.

(٤) إيفلين هوایت: المرجع السابق، ١٧٨-١٨٠.

(5) Baumann, Hans-Wolf, Constantin von Tischendorf und der Codex Sinaiticus, 11 März 2015, Gemeindeforum - <http://www.gemeindeforum.de>.

انظر: ملحق رقم ٤، ٥، ٦، ٧.

(برونزيك) محاولة شراء بقية المخطوطات، ولكن فشلت هذه المحاولات، أما الرحلة الثانية لتشيندروف كانت عام ١٨٥٣م وجاء من أجل زيارة دير القديسة كاترين، وكانت رحلة فاشلة بالنسبة له حيث ذكر عنها قائلاً: ” كل الذي استطعت العثور عليه هو شذرة صغيرة لمخطوطة من نفس مجموعة المخطوطات، مستخدمة كما يبدو كمؤشر وظهر على جانبيها أحد عشر سطرًا من الكتاب المقدس العهد القديم من سفر التكوين“.

أما الرحلة الثالثة والناجحة للرحالة الألماني قسطنطين تشيندروف كانت عام ١٨٥٩م، حيث اكتشف المخطوطة السينائية (٣٤٦) ورقة مخطوطة، وبعد اكتشافها عرض مبلغ من المال على أمين الدير مقابل السماح باصطحاب المخطوطة، غير أنه رفض هذه الفكرة شكلاً وموضوعاً. ونذكر للتاريخ أن تشيندروف كشف أكبر مزور للمخطوطات في القرن التاسع عشر، ويدعى ”قسطنطين سيمونيدس“ (١٨٢٠-١٨٦٧م)^(١). وهنا يجب أن نوضح موقف القانوني الدولي من المخطوطة السينائية فبعد أن قام تشيندروف بتسليمها لقيصر روسيا ١٨٥٩م وضعت في وزارة الخارجية، كإشارة إلى مجهولية ملكيتها من حيث الناحية القانونية. وقد استغل أعداؤه الفرصة فأطلقوا الإشاعات والشكوك حوله لدرجة اتهامه بسرقة المخطوطات^(٢)، ولكن الروس لجؤوا بالطرق الدبلوماسية والقانونية مع رئيس الدير للحصول على موافقته بإهداء المخطوطة لقيصر روسيا في مايو ١٨٦٩م. وهنا من الناحية القانونية أصبحت ملك لروسيا، فنقلت المخطوطة السينائية من وزارة الخارجية لتعرض في المكتبة الإمبراطورية العامة في روسيا^(٣).

على أية حال، استمرت ظاهرة بيع المخطوطات والنقوش حتى أوائل القرن العشرين، وتطورت فكرة البيع، فبدلاً من البيع من شخص إلى آخر أو من شخص لمؤسسة أو متحف، أصبح البيع من دولة لدولة ونذكر على سبيل المثال لجوء روسيا عقب الثورة البلشفية ١٩١٧م،

(١) جيمس بتلي: المرجع السابق، ص ٨٠-٩١؛ انظر: ملحق رقم ٥.

(2) Baumann, Hans-Wolf, Constantin von Tischendorf und der Codex Sinaiticus, 11 März 2015, Gemeindeforum - <http://www.gemeindeforum.de>.

(٣) جيمس بتلي: المرجع السابق، ص ٩٤-٩٦.

إلى بيع بعض المخطوطات والوثائق من أجل توفير العملة الأجنبية، حيث باع ستالين في عام ١٩٣٣ م، المخطوطة السينائية^(١) لرئيس وزراء بريطانيا "رامزي ماكدونالد" Ramsay MacDonald (١٩٢٩-١٩٣٥ م)^(٢) مقابل مائة ألف باوند، ونقلت المخطوطة إلى لندن في ٢٧ ديسمبر ١٩٣٣ م ووضعت في المتحف البريطاني ولا تزال حتى يومنا هذا^(٣).

وهنا يجب أن نسجل للتاريخ أن تهمة سرقة المخطوطة السينائية، وقصاصات المخطوطات من دير الأنبا مقار بوادي النطرون لاحقت تشيندروف، وخاصة من أعدائه أي المنافسين له في مجال الدراسات والكتابات اللاهوتية القديمة للكتاب المقدس، فليس دفاعاً عنه، فإنه لم يكن في يوم من الأيام تاجرًا أو وسيطًا أو سمسارًا للمخطوطات والوثائق والنقوش القديمة، وكتب التراث وغيرها، فكان إنسانًا باحثًا وأستاذًا بجامعة لايبزيغ وهي من أقدم الجامعات الألمانية، ووهب نفسه للبحث عن المصادر الأصلية للكتاب المقدس، لكتابة النص المسند، وخاصة بعد أن ساد أوروبا والعالم الإلحاد وكثر المشككين في صحة الكتاب المقدس.

على أية حال، كانت ظاهرة شراء المخطوطات والوثائق منتشرة بصورة كبيرة ما بين القرن الرابع عشر الميلادي وحتى القرن العشرين الميلادي، كما سبقت الإشارة، وهنا نؤكد على حقيقة تاريخية أن معظم الرحالة الزائرين لوادي النطرون هم أيضًا الزائرون لدير سانت كاترين، ولديري الأنبا بولا والأنبا أنطونيوس، ولأديرة الصعيد بجنوب مصر، وكان هدفهم جميعًا واحدًا، وهو شراء أو نهب المخطوطات والكتب النادرة القيمة، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ماذا كان يحدث لو لم يستولى آل إيلياس السمعياني على مجموعة من المخطوطات المحفوظة حاليًا في مكتبة الفاتيكان؟ هل كنا نسمع عن المخطوطة متعددة اللغات الشهيرة (بارييري)، التي تدل على عمق وقوة العلاقات الرهبانية ما بين الرهبان المصريين الذين احتضنوا إخوانهم

(1) Baumann, Hans-Wolf, Constantin von Tischendorf und der Codex Sinaiticus ,11 März 2015, Gemeindeforum - <http://www.gemeindeforum.de>.

(2) https://de.wikipedia.org/wiki/Ramsay_MacDonald.

(3) Baumann, Hans-Wolf, Constantin von Tischendorf und der Codex Sinaiticus ,11 März 2015, Gemeindeforum - <http://www.gemeindeforum.de>.

من الرهبان الأحباش والأرمن والسرمان! وأيضاً لو لم ينتشل تشيندروف المخطوطة السينائية؟ أو قصاصات مخطوطات دير القديس الأنبا مقار؛ ربما كانت تتعرض هذه المخطوطة للحريق أو التهلك والتلف مثل الآف المخطوطات نتيجة لجهل بعض الرهبان بنظام التخزين؛ الذي يؤدي إلى تعرضها لبهتان خطها وزوال النص الأصلي أو عدم القدرة على قراءتها، وأيضاً لم نكن نتوصل إلى النص المسند للكتاب المقدس، وكذلك لما تم إثبات صحة كل ما ورد بالكتاب المقدس كما وعد الرب شعبه قائلاً: ”السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ تَزُولَانِ، وَلَكِنَّ كَلَامِي لَا يَزُولُ“^(١). ولذلك من الواجب ومن المرغوب فيه، وقف الاتهامات الباطلة ضد آل إيلياس أو تشيندروف أو غيرهم، ويجب أن يتحول الحديث إلى فضلهم في تجهيز ونشر هذه المخطوطات. ولكن هل نستجدي أنفسنا لمساحتهم. هذا لا يمنع أن كاتب هذه السطور كونه مصرياً يري أن كنوز كنيسة القبطية الأرثوذكسية لا تفرط فيها أبداً، ولكي نشفي ألماً من هذا الموضوع نطالب بنسخة ديجيتال لكل مخطوطاتنا والقصاصات التي تسربت إلي الخارج بطرق مختلفة إن لم يكن إعادتها إلينا. ووضعها في مكانها الأصلي الذي سرقت منه، أو وضعها في مكتبة الإسكندرية باعتبارها أقدم مكتبات العالم، وهذا ما نتمناه.

فضل الرهبة ورهبان وادي النطرون على العالم

الرهبة في المسيحية بالنسبة للكنيسة كالجذور بالنسبة للشجرة، وكالأساس بالنسبة للبناء، فعلى قدر ما يكون الأساس عميقاً ومتيناً على قدر ما يكون البناء عاليًا وثابتًا، وكما أن جذور الشجرة وأساس البناء كلاهما لازم لكنه مدفون في الأرض، هكذا الرهبة هي أساس الكنيسة المدفون في عمق الصحراء. وكلما كانت الرهبة قوية كانت الكنيسة قوية أيضاً لأن معلّمى وقادة الكنيسة من بطاركة أو أساقفة ومعاونهم هم من الأديرة، وكلما كانت الكنيسة قوية في الروحانية والعلم أفرزت رهباناً وراهبات روحانيين أتقياء مثاليين^(٢).

(١) الكتاب المقدس: (لو ٢١: ٣٣).

(٢) تأليف أحد الرهبان دير الأنبا بشوي: دير القديس العظيم الأنبا بشوي على مر الأجيال، المرجع السابق،

والرهبان هم خدام الله الحقيقيون فيبينما يسكنون على الأرض.... يعيشون كمواطنين حقيقيين للسماء. فلذلك يعتمد الناس في كل المسكونة على صلوات هؤلاء الرهبان، كما لو كانوا يعتمدون على الله نفسه. وهنا يسجل لنا أحد الرحالة الزائرين لبرية شيهيت بمنطقة وادي النطرون مركز الرهبة فوصف الرهبان قائلاً: «إن الرهبان بواسطتهم العالم محفوظ، وأنه بواسطتهم أيضاً يحفظ الله البشرية ويكرمها». وهكذا الرهبان في عالمنا الأرضي هم دائماً المدافعين عنا والحارسين لسلام العالم والساهرين باستمرار على حماية الحدود لأنهم مسلحين ضد الشياطين، من أجل خاطر البشرية^(١)، وهذا ما ورد في الكتاب المقدس حيث ذكر قائلاً: «فَاتَّبِعُوا مُمْتَطِّقِينَ أَحْقَاءَ كُمْ بِالْحَقِّ، وَلَا بَسِينَ دِرْعِ الْبَرِّ، وَحَازِينَ أَرْجُلَكُمْ بِاسْتِعْدَادِ انْجِيلِ السَّلَامِ. حَامِلِينَ فَوْقَ الْكُلِّ تَرَسَ الْإِيمَانِ، الَّذِي بِهِ تَقْدَرُونَ أَنْ تُطْفِئُوا جَمِيعَ سِهَامِ الشَّرِّيرِ الْمُلْتَهَبَةِ. وَخُذُوا خُوذَةَ الْخَلَاصِ، وَسَيْفَ الرُّوحِ الَّذِي هُوَ كَلِمَةُ اللَّهِ.»^(٢).

ومن الجدير بالذكر، أن المجتمع في العصور الوسطى كان ينقسم إلى ثلاثة أقسام: أولئك المحاربون أي المدافعون عن الدولة ضد المغيرين عليها، وأولئك العاملون بالأرض الزراعية والحرف الصناعية والتجارية، وأولئك الذين يصلون ليل نهار والمتعبدون بالبراري والشقوق. هنا الكل يعمل داخل منظومة ربنا يأتي على قائمتها الصلاة من أجل أن يبارك الله أعمالهم^(٣).

على أية حال، يعد الرهبان هم معلمو الفضائل المسيحية وحراسها ورموز الحياة، وتوجد أمثلة معيشة للفضيلة المتجسدة في حياتهم، والتي انتشرت روائحها الذكية عبر التاريخ. فما زالت قصة شجرة الطاعة للقديس يوحنا القصير كنموذج للطاعة وثمارها الحلوة، وقصة عنقود العنب أيام القديس مقاريوس تجسد المحبة الأخوية وتقديم الآخرين عنا، وقصة القديس الأنبا بيشوي وهو يقاوم النعاس الطبيعي لمواصلة الصلاة ليلاً ونهاراً بربط شعر رأسه بسقف مغارته بدير السريان، وأن دل ذلك على شيء إنما يدل على أن الصلاة حديث روحى لذيد وشيق بين

(١) هستوريا موناخورم: المرجع السابق، ص ٢٣.

(٢) الكتاب المقدس: (أفسس ٦: ١٤-١٧).

(٣) هستوريا موناخورم: المرجع السابق، ص ٢٣.

الإنسان والمسيح فاديه، وفي ذلك تشجيع على الصلاة الحقيقية العملية في بساطة الروح وشوق القلب، وهو تعليم صامت لماهية الصلاة. وذلك الراهب الذي ظل طول عمره يبكي لأنه أكل خيارة واحدة وجدها على الطريق، فهذا تعليم لنا يدل على عمق الأمانة وكيف يجب لنا أن لا نأخذ ما ليس لنا. وقصة ذلك الراهب الذي كان فرحاً عند موته ومتهللاً، فلما سألوه: لماذا؟ قال: لأني لم أذن أحداً قط، فأنا واثق أن الله لا يدينني؛ لأنه قال: لا تدينوا لكيلا تدانوا. وهذا تعليم واضح لأهمية عدم إدانة الآخرين، والقديس مقاريوس الكبير الذي جلس على الماجور الذي كانت تحتبىء تحته المرأة الخاطئة لكيلا يفتضح أمرها وأمر صاحبها، حتى صار ذلك مثلاً: إن القديس مقاريوس غطى الخطية بالزبدية. كذلك الأنبا موسى عندما طلبوه لمحاكمة أحد الإخوة فجاء يحمل جوالاً مملوءاً بالرمال على ظهره وتسرب منه الرمال خلفه فقال لهم: ”فيما أنا مثقل بخطاياي التي أحملها ولا أنظرها فكيف أدين أخي على خطاياي“^(١). وهذا ما ذكر في الكتاب المقدس حيث ذكر قائلًا: ”لِمَاذَا تَنْظُرُ الْقَدَى الَّذِي فِي عَيْنِ أَخِيكَ، وَأَمَّا الخَشَبَةُ الَّتِي فِي عَيْنِكَ فَلَا تَنْظُرُ لَهَا؟“^(٢).

وهنا يجب أن نسجل نموذجاً فريداً لشيخ وقور من أحد الأباء الرهبان حين ذهب لبيع عمل يديه، فتظاهر المشتري أنه ليس معه نقود واصطحبه إلى بيته ليعطيه ثمن القفف، وذلك ليستدرجه ليصلي لابنته المصابة بروح نجس، فلما وصل الراهب القديس إلى منزل ذلك الرجل خرجت ابنته وصفعت على وجهه، فحول لها الراهب خده الآخر، فلم يحتمل الشيطان تنفيذ وصية السيد المسيح فخرج منها صارخاً: آه من قوة تعاليمك أيها الناصري، وهكذا نرى أن حياة الآباء الرهبان هي تجسيد للفضيلة، بل هم مقياس القامة الروحية والإنجيلية للفضائل المسيحية يراها فيهم الناس فيتشبهون بهم، ويقيسون أنفسهم على ميزان الفضيلة الرهباني، كما يقيسون ويعايرون دقة الموازين والمكاييل والأطوال والساعات بالأجهزة الأصلية الدقيقة لضبطها لثلاث تنحرف القياسات. وهكذا كان رهبان شيهيت نموذجاً للفضائل وإذا جاز لنا

(١) تأليف أحد الرهبان دير الأنبا بشوي: دير القديس العظيم الأنبا بشوي على مر الأجيال، المرجع السابق، ص ٥٩.

(٢) الكتاب المقدس: (لو ٦: ٤١).

أن نقول مثل أنبياء العهد القديم نذكر منهم، أبو الآباء إبراهيم في حياة الإيمان، وإسحق في الطاعة، ويعقوب في الجهاد، ويوسف الصديق في العفة، وأيوب في الصبر، وإيليا في حياة الصلاة، وأرميا في الغيرة والدموع، ويوحنا المعمدان في النسك والشهاد للحق^(١).

كما أن حياة الصلاة عند الآباء الرهبان بلا انقطاع كما يقول الكتاب المقدس، وكما ذكر أحد رهبان برية شيهيت قائلاً: ”الصلاة هي رَجْع (أي صَدَى) صوت الروح القدس في القلب، لأنه إن لم يكن لنا الروح القدس يعمل في القلب، فلن تكون صلاة مقبولة أمام الله“ وفي موضع آخر ذكر قائلاً عن الصلاة: إنها ”صلاة القيامة، ولحظات الأبدية، وساعة المسيح التي يُمارسها أولاد المسيح الذين ينهضون للصلاة والتسبيح في كلِّ وقتٍ وبلا ملل“، وأيضاً ذكر قائلاً: ”حينها يجذبنا الله إلى الصلاة، فهو لا يضع خلاصنا نحن فقط أمام عينيه، بل يُريد أن يستخدم صلواتنا لخلاص الآخرين أيضاً“ فالصلاة كانت عملاً عظيماً يتم إنجازه في الجسم الحصيف. فالرهبان بصلواتهم مثل الأشجار ينقون الجو بواسطة حضورهم. وهم بؤرة القوة الروحية لمجتمعهم، وأيضاً صناع سلام بين الناس^(٢)، كما ذكر الكتاب المقدس قائلاً: ”طُوبَى لِصَانِعِي السَّلَامِ، لِأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ يُدْعَوْنَ.“^(٣).

خلاصته: أن الراهب صديق الله، رجل له حظوة في بلاط السماء، وشخص به يحفظ الله الحياة البشرية ويكرمها. إن الآباء الرهبان لهم تراث عظيم وغير محدود من جهة أقوالهم النافعة في المجالات كافة، وكذلك فقد كان لهم فضائل كثيرة في شتى العلوم الدينية واللاهوتية وقد تركوا لنا تراثاً عظيماً من المخطوطات والوثائق والكتب والمحفوظات^(٤).

(١) تأليف أحد الرهبان دير الأنبا بشوي: دير القديس العظيم الأنبا بشوي على مر الأجيال، المرجع السابق، ص ٥٩.

(٢) ماجد عزت إسرائيل: مقال بعنوان «فضل الرهبنة على العالم»، موقع الأقباط متحدون، بتاريخ ٤ ديسمبر ٢٠١٧م.

(٣) الكتاب المقدس: (مت ٥: ٩).

(٤) ماجد عزت إسرائيل: مقال بعنوان «فضل الرهبنة على العالم»، موقع الأقباط متحدون، بتاريخ ٤ ديسمبر ٢٠١٧م.

ونريد هنا أن نسجل دور الآباء الرهبان في الكرازة والخدمة فإننا نرى أنه حرص الرهبان الأقباط على الحفاظ على الفضائل والقيم الروحية السامية وتعاليم الكتاب المقدس والكرازة، ولذلك دافعوا بحماسة بالغ وذهن متوقد مبدع وقلب نقى مخلص عن الإيوان المسيحي عامة، والإيمان الأرثوذكسي خاصة بوازع داخلي، او للإحساس بالمسئولية عندما تقتضى الضرورة ذلك، او بدعوة من الكنيسة، وهكذا رأينا القديس الأنبا بيشوي الوديع الكامل يقابل أحد تلاميذه بجفاء لأنه تهاون في الرد على ملاحظات أحد اليهود، وأيضاً تحمل الأنبا بيشوي مشقة عمل قفف بثلاث آذان وحملها والسفر بها إلى المنشأة ليرد العابد الهرطوقي. وهكذا فعل معلمه الأنبا بموا عندما ذهب للوقوف مع البابا ضد الهرطقة. ومن قبلها نزل القديس الأنبا أنطونيوس للإسكندرية مرتين وهو شيخ كبير لتشجيع المؤمنين على الثبات في الإيمان ومقابلة الاستشهاد بفرح، ومرة أخرى ليدعم تعاليم البابا أثاناسيوس الأول البطريرك رقم (٢٠) (٣٢٨-٣٧٣م) ضد بدعة أريوس، وليبث في نفوس المؤمنين بفرح الإيمان الفياض المتاصل فيه والذي ليملاً قلوب سامعيه، وليشع بأنواع تعاليم كنيسة الإسكندرية، وينجح في إبادة الأريوسية، ونذكر للتاريخ أن البابا أثاناسيوس الأول كان يتخذ من برية شيهت ملجأ له للهروب من الأريوسيين والحكام المناصرين لهم، لكي يتفرغ لكتابة مؤلفاته التي يرد بها على بدعتهم^(١).

ومن المعروف أن العالم يدين بالفضل للقديس العظيم الأنبا أنطونيوس في التعليم والكرازة، ومن ديريه بالبرية الشرقية بالبحر الأحمر انتشرت الرهينة في شتى ربوع العالم، كما أن القديس الأنبا باخوميوس لعب دور بارز في تأسيس الرهينة الباخومية ولا تزال تعاليمه تمارسها الأديرة المسيحية في مصر والعالم^(٢)، كما أن البابا "ثاؤفيلوس" البطريرك رقم (٢٣) (٣٨٥-٤١٢م) استعان بالقديس "مقاريوس الكبير" للتصدي لبعض الهرطقات؛ ونجح في ذلك مما دعم مكانة الرهبان لدى باباوات الإسكندرية، وهكذا كان الرهبان هم جيش الله الذي هزم الوثنية ونشر المسيحية في ربوع مصر. كذلك يدين العالم بالفضل لمدرسة الإسكندرية في مواقفها في

(١) تأليف أحد الرهبان دير الأنبا بشوي: دير القديس العظيم الأنبا بشوي على مر الأجيال، المرجع السابق، ص ٦٢-٦٣.

(٢) رسالة مارمينا: المرجع السابق، ص ٢٨-٣١.

المجامع المسكونية^(١)، كما لا ينكر أحد فضل رجل الصلاة البابا "كيرلس السادس" البطريرك رقم (١١٦) (١٩٥٩-١٩٧١م) ومدى تأثيره كنموذجاً للرهبان في مصر والعالم، فبصلواته وأصوامه وحياته الروحانية، قام بتوطيد العلاقات ما بين الكنيسة والدولة، وشيدت في عهده العديد من الكنائس ورممت الكثير من الأديرة، وبمعمزاته جذب للمسيحية العديد سواء من المسيحيين أنفسهم أو من الطوائف الأخرى^(٢)، وأيضاً قداسة البابا "شنودة الثالث" البطريرك رقم (١١٧) (١٩٧١-٢٠١٢م) الذي اشتهر بمعلم الأجيال، وانتعش في عهده تعلم اللغة القبطية وشيدت الكنائس والأديرة في شتى دول العالم، ولوطنيته وعروبه لقب بـ "بابا العرب"^(٣).

ونخلص مما سبق إلى أن أديرة وادي النظرون إبتداء من القرن الرابع وحتى القرن العشرين الميلادي، كانت مركزاً للحياة الرهبانية الديرية، وكانت هناك شروط لطالب الرهبنة وهي على الأقل ثلاث سنوات، كما كان للرهبان زى خاص بهم، ولكن زى طالب الرهبنة، يختلف عن زى القس أو القمص أو الأسقف، ومن خلال الحياة اليومية للراهب داخل أديرة شيهيت، كانت هناك مواعيد للعمل والغذاء والصلاة، كما مارست الأديرة طقس ثلاثة قداسات إلهية وهي: القداس الباسيلي، والغريغوري، والكيرلسي.

وقد خضعت الأديرة لتنظيمات إدارية، تمثلت في مجموعة الوظائف التي كان شاغلها يكلف بمهام وكان عليها اتباع اللوائح والقوانين المنظمة لإدارتها، كما أن مصادر تمويلها تعددت، منها من عائد أعمال الرهبان والعشور والنذور والأوقاف وهبات الحكام، وبواسطتها أمكن لها أن توازن إيراداتها مع نفقاتها التي تمثلت في ترميم الأديرة وإنشاء القلاوي وكسوة ومصروفات

(١) تأليف أحد الرهبان دير الأنبا بشوي: دير القديس العظيم الأنبا بشوي على مر الأجيال، المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢) ماجد عزت إسرائيل: لمحة عامة عن البابا كيرلس السادس، مشروع كنوز قبطية، ٢٠١٨م؛ نفسه، الكنيسة وليلة تنحى الرئيس عبد الناصر ٩ يونية ١٩٦٧م، ٢٥ سبتمبر ٢٠١٣م.

(٣) ماجد عزت إسرائيل: مقال بعنوان "في ذكرى رحيله مكانة البابا شنودة عند العرب والمسلمين"، جريدة الدستور، ١٦ مارس ٢٠١٥م.

الرهبان وما يرسل للبطريركية القبطية، وما ينفق على الفقراء والمحتاجين وتعليم أقباط الوادي.

وهكذا تعرضت الأديرة لبعض المشكلات مثل مشكلة دير السريان والتبشير الديني واعتداءات العربان، فاتضح دور الدولة في مسانبتها في حل بعض مشكلاتها التي واجهتها خاصة في القرن التاسع عشر، كذلك اتضح لنا أن الرحالة الزائرين بعضهم جاؤوا إلى وادي النطرون من أجل التبارك من هذه البقعة المقدسة التي زارتها العائلة المقدسة، اما البعض الآخر فجاء من أجل هدف واحد وهو شراء أو سرقة المخطوطات على نحو ما رأينا، وأيضًا اتضح لنا فضل الرهبنة المسيحية على العالم حيث ساهم وادي النطرون ورهبانه في نشر الرهبنة في جميع بقاع العالم، كما كان لرهبان برية شيهيت فضل في الدفاع عن المسيحية الصحيحة من حيث مبادئها وطقوسها وقوانينها وتعاليمها أمام الحكام والولاة والسلاطين والمجامع المسكونية.

